مقالات غير محكمة, ندوة عمارة المساجد، م ١٠ أ, ص ص ٥١-١١٠، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

مكة المكرمة عبر التاريخ

محمد سليمان النفيسي

الكويت

ملخص البحث: لقد تبيّن لي أن هناك العديد من الرسومات التوضيحية التي توضح مراحل تطور مكة وازدهارها ونموها عبر التاريخ فيها أخطاء لا يمكن السكوت عنها. وبحكم قراءاتي للمؤلفات حول مكة المكرمة بشكل عام، والمسجد الحرام بشكل خاص، تبين أنه من الممكن تصحيحها. والتي سأوردها مسلسلة ضمن هذا البحث. وتأتي أهمية هذه الدراسة التي تأخذ طابع العرض والنقض، نظراً للانتشار الكبير للمصقات الحرم المكي (التي تحتوي معلومات خاطئة) والتي قد بِيع منها أكثر من ربع مليون نسخة، حسب ما صرح لي أحد البائعين في إحدى المكتبات الإسلامية.

المقدمة

إن هناك أخطاء يجب استدراكها في جميع ما تم عمله من ملصقات ومجسمات ورسومات توضيحية لمكة المكرمة، وهذه الأخطاء سيتم توضيحها واحد تلو الآخر.

الخطأ الأول

من أول هذه الأخطاء، خطأ شائع ومشترك في كل ما تم عمله من تصورات لمكة المكرمة المتمثلة ببعض الملصقات والمجسمات (شكل ١)، والذي يَكمُن في اختلاف مقياس الرسم من صورة لأُخرى، حيث أن وحدة مقياس الرسم في جميع الرسومات تُتيح للقارئ التعرف جيداً على مدى التطور الحاصل في مكة المكرمة عبر التاريخ، هذا بالإضافة إلى معرفة المواقع الأثرية للبيوت المشهورة بمكة والتي دخلت في المسجد الحرام عبر عصور متتالية طبقاً لأعمال التوسعة، وسنأتي لبيان ذلك في الاستدراكات على في عهد فجر الإسلام والعهود التي تليه إن شاء الله. ونرجع ونقول: لا بد من الوحدة في مقياس الرسم لكل تصور، أو التفاوت البين في مقياس الرسم بين تصور وآخر، وذلك كي يحصل التمييز، أما التفاوت البسيط كما هو حاصل في هذه التصورات فإن ذلك يعد خطأ وذلك لأن الرائي يظن أنها متساوية في مقياس الرسم.



شكل ١: أحد الرسوم التصورية لمكة المكرمة عبر التاريخ.

ومن الأمور المهمة في هذا البحث التركيز على رسم عهد فجر الإسلام الذي ينقُلنا إلى رسم زمن النبوة وبيان النواقص والتصحيحات اللازمة. فإننا بلا شك إذا توصلنا إلى رسم تقريبي للمسجد الحرام وما حوله في زمن النبوة فإن هذا يُعد إنجازاً مهماً يُضاف إلى الدراسات التاريخية والعمرانية لمكة في العصر النبوي. ومن المناسب أن أُبين هنا للقارئ مواقع الجهات المجازية الأربع من الكعبة كي لا يحصل الالتباس في الشرح والتصحيح:

١ – الجهة الشرقية: هي ما قبل وجه الكعبة الذي به الباب والمقام والمنبر وباب السلام .. إلخ.

٢ – الجهة الشمالية: هي جهة الحجر والمقام الحنفي ودار الندوة وبيت المال .. إلخ.

٣ – الجهة الغربية: هي ما خلف الكعبة حيث المقام المالكي وباب إبراهيم وقصر السلطان الغوري .. إلخ.

٤ – الجهة الجنوبية: هي ما يقابل الركن اليماني والحجر الأسود بما في ذلك المقام الحنبلي والرواق الجنوبي من باب الصفا إلى باب أُم هانئ .. إلخ.

ومما يسرته على القارئ أنني أشرح أحياناً بالجهات، فمثلاً أقول: إن دار عمر بن الخطاب ﷺ كانت تقع على يمين الرسم وأسفل منه (أي: في الركن الأيمن والسُفلي للوحة)، وذلك تيسيراً على القارئ، وأنا أقصد هنا أنها تقع شمال شرق الكعبة المشرفة وفي منتصف المسعى بين الصفا والمروة.

والرسومات هذه في مراحلها المختلفة يُفترض أن تتخللها رسوم أُخرى لمراحل أُخرى. مثلاً قفزة كبيرة من رسم العصر العباسي الثاني (بدايات القرن الرابع سنة ٣١٠هـ) إلى رسم العصر العثماني سنة ١٢١٥هـ (بدايات القرن الثالث عشر الهجري)، فيفترض مثلاً أن يتخلل ذلك رسمتان على الأقل أحدهما رسم للعصر الأيوبي (زمن الرحالة ابن جبير) العصر المملوكي الجركسي (زمن السلطان قايتباي)، والآخر لزمن الملك المؤيد (بدايات القرن التاسع الهجري) وذلك لاحتواء المسجد آنذاك على خمس مآذن، بعد أن كانت سبع مآذن في العصر الأيوبي.

كذلك يمكن استحداث رسم آخر ما بين العصر النبوي والعصر الأموي: وهو رسم في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ، لأنه أول من اتخذ الأروقة في المسجد الحرام (ولم تكن أروقة بعقود بل كانت أروقة مستقيمة)، وذلك سنة ٢٦ هـ، وممكن أن نؤرخ ذلك مثلاً بعد استكمال العمارة سنة ٣٠ هـ. أما الأروقة التي على هيئة عقود (أقواس) نصف دائرية أو مدببة فقد اُتخذت في بادئ الأمر في المسجد الحرام في العصر الأموي (زمن الخليفة عبد الملك بن مروان) في العصور التي تلي ذلك.

الخطأ الثاني

هيئة الكعبة، الأمر الآخر والمهم الذي أود أن أُشير إليه أن شكل الكعبة عبر العصور الإسلامية في هذه الرسوم يُظهرها مستطيلة وغير مرتفعة، وهذا غير صحيح لن الكعبة منذ زمن قريش حتى يومنا هذا (باستثناء زمن ابن الزبير) هي على الهيئة في الطول والعرض والارتفاع (قيل عن ابن الزبير زاد في ارتفاعها تسعة اذرع) وهي تميل إلى التكعيب لا إلى الشكل المستطيل، كما أنها مرتفعة وارتفاعها أكثر من طولها، أكثر من عرضها، وارتفاعها يصل إلى ١٥ متراً، وهذا يُناقض ما في هذه الرسوم وبخاصة التي تتعلق بالعصر الأموي والعباسي الثاني والعثماني.

الخطأ الثالث

موقع الصفا، الأمر الأخر أن موقع الصفا يُفترض أن يكون إلى الجنوب أكثر مما هو إلى الشرق من الكعبة المعظمة وهذا ما هو حاصل في رسوم الأزمنة الثلاثة الأولى (زمن إبراهيم عليه السلام، زمن قُصي بن كلاب، زمن فجر الإسلام). ومن خلال متابعتك أخي القارئ لهذا البحث سترى أنه توجد أخطاء رئيسة بينة بالإضافة إلى الأخطاء الفرعية أو الجزئية في هذه الرسوم، لذا وجب التنبيه لذلك. وأود أن أذكر هنا أنني أحتفظ بكثير من المخطوطات المصورة لرسومات المسجد الحرام من عدة عصور، ومن الملاحظ أنها كُلها قد تم رسمها من فوق جبل أبي قُبيس، أي الجبل شرقي المسجد الحرام. والسبب في ذلك ظهور معالم المسجد الحرام وما حوله للرسام كاملة من الجهة

الشرقية والتي منها مثلاً ظهور المسعى بأكمله، وكذلك مقام إبراهيم والمنبر وباب الكعبة ومبنى زمزم وباب بني شيبة وغير ذلك، وهذا ما سنهتم به إن شاء الله تعالى، ولو تم الرسم من الجهة الغربية مثلاً لما ظهرت هذه المعالم، كما سنهتم بالخرائط الطبوغرافية لمنطقة المسجد الحرام إن أمكننا الحصول عليها لبيان المباني التي حول المسجد الحرام لأهميتها وارتباطها بهذا البحث كارتفاعها أو انخفاضها، بالإضافة إلى بيان المدارس القديمة ومواقعها حول المسجد الحرام.

ميزة الرسوم التصويرية

شيء جميل أن يتعرف المسلمون على ما كانت عليه مكة قديماً وعلى مر العصور وكأنهم يُشاهدون لقطات متسلسلة لمكة المكرمة عبر التاريخ وكيف تطورت وكثرت فيها المساكن مع اتساع المسجد الحرام في كل حقبة والتغيرات والإضافات التي طرأت على المسجد والملامح التي تميزه بين فترة وأُخرى. وإذا أردنا أن نجعل ذلك على هيئة رسومات تصورية فهذا يعني أنه لابد من عمل دراسة متأنية لتواريخ مكة وكتب الرحلات التي يصف بعضها المسجد الحرام وصفاً دقيقاً كابن جبير (الرحالة الأندلسي) وغيره كما سيأتي بيانه. أقول: حتى هذا لا يكفي، فلا بد من الاستعانة بالباحثين المختصين في هذا المجال أو بمن لهم إلمام واهتمام بما يتعلق بتواريخ مكة المكرمة لكي نخرج برسوم مطابقة أو مشابهة أو مقاربة لما هو مدون في تواريخ مكة وكتب الرحلات وننقلها من كتابة مدونة إلى رسومات مصورة تصف لنا ما كانت عليه مكة قديماً. وذلك لأن الرسم من أهم الوسائل المتخذة في الإيضاح والتبيين، وبخاصة للعوام والذين لا يحبون القراءة. وستلاحظ أخي القارئ بأننا سنطيل الحديث عن رسم العصرين العباسي والعثماني وذلك لوفرة المصادر الواصفة للمسجد الحرام في هذين العهدين سواء أكان ذلك من كُتب التاريخ أو كُتب الرحلات كما سيأتي بيان ذلك لاحقاً.

والجدير بالذكر أنني قد نشرت حول هذا البحث مقالات عدّة وذلك في مجلة "الفرقان" الإسلامية بدولة الكويت تحت باب: مباحث في التراث الإسلامي وذلك في إحدى عشرة حلقة من العدد ٦٥ ربيع الآخر ١٤١٦هـ حتى العدد ٧٥ من شهر صفر ١٤١٧هـ.

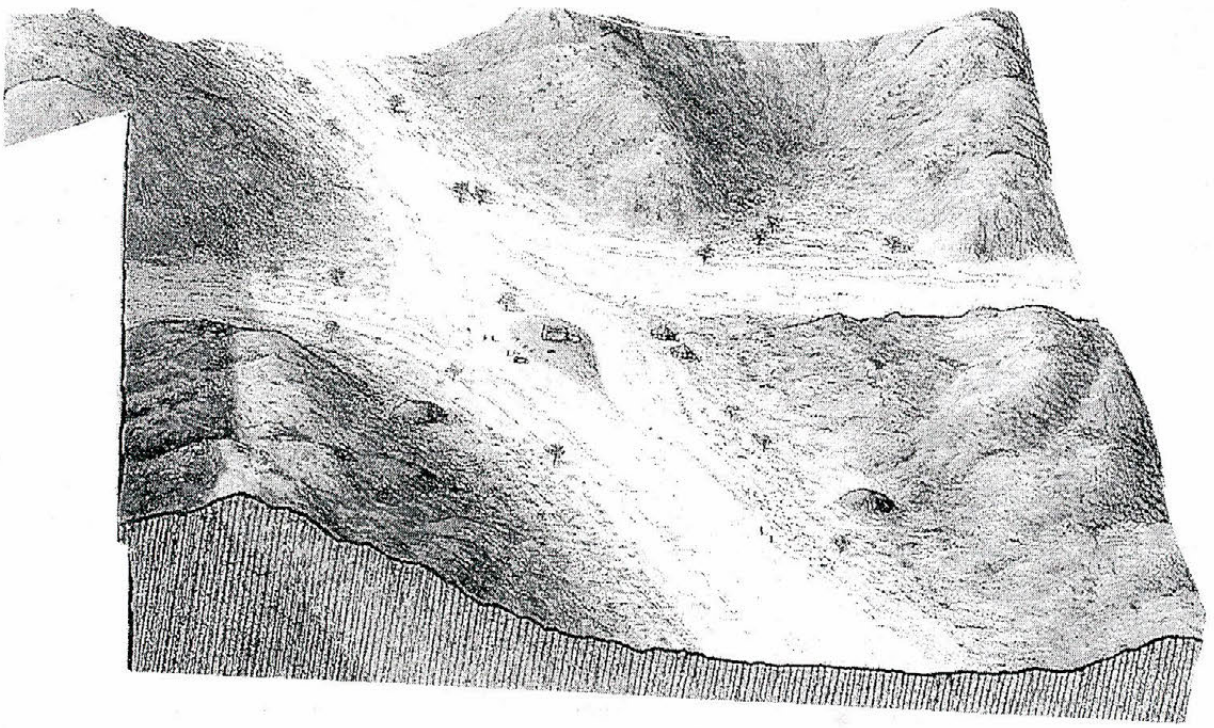
ودراستي هذه حول هذه الرسوم، تتركز على وصف مكة والمسجد الحرام من الجهة الشرقية، وهذا يعني أنني قد تركت مجالاً للباحثين الآخرين ليُعدّوا تصوراتهم للجهات المتبقية وهي: الجهة الشمالية والجنوبية والغربية.

ولاشك في أن هذه الدراسة سوف تُفيدهم كثيراً وستوفر عليهم جانباً كبيراً من عناء البحث والتقصي في المراجع المختلفة ذات العلاقة، وذلك لإظهار بعض المعالم القديمة التي لا يمكن إظهارها، التي نحن بصددها والتي منها مثلاً: ظهور المآذن الأربع التي اتخذها هارون الرشيد فوق جبل أبي قُبيس، والتي لا يمكن إظهارها في هذه الرسوم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المقام المالكي وباب إبراهيم، وباب الصفا، وقصر الحميدية والتكية المصرية والحمامات والمدارس والقلاع والبرك.. إلخ.

مكة المكرمة زمن إبراهيم عليه السلام

أولا: ظهرت الكعبة على ربوة من الأرض وذلك صحيح .. فقد أخرج البخاري في صحيحة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل - وذكر قصة مجيء إبراهيم بهاجر وابنها إسماعيل إلى مكة إلى أن قال: وكان البيت مرتفعا عن الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله.[١] وذكر ابن جرير الطبري في تفسيره نقلا عن مجاهد وغيره من أهل العلم أن الله لما بوأ لإبراهيم مكان البيت .. إلخ .. إلى أن قال: والبيت يومئذ ربوة[١] حمراء مدرة (شكل ٢).

ثانيا: كون البيت ليس له سقف زمن إبراهيم عليه السلام فهذا صحيح أيضا (شكل ٣)، فقد ذكر ابن جرير الطبري ذلك من طريق عطاء: ولم يجعل له سقفا وجعل له بابا وحفر له بئرا عند بابه خزانة للبيت يلقى فيها ما يهدى للبيت .. الخ.[٢، ط٧، ص ص ١٨] وقد ذكر الأزرقي في تاريخه نقلا عن ابن إسحق .. أن إبراهيم عليه السلام لم يقم سقف البيت ولا بناه بمدر وإنما رصه رصا.[٣]



شكل ٢: رسم يوضح مكة المكرمة زمن إبراهيم عليه السلام.

الخطأ الأول: حجم الكعبة

بين شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله أن امتداد مساحة الكعبة إلى قواعد إبراهيم يصل إلى نقطتي الانحناء في الحجر (وهو ما يقارب ستة أذرع من الجهتين) وإن قيل: قد أخذ في الاعتبار هذه الروايات وغيرها، والكعبة تبدو

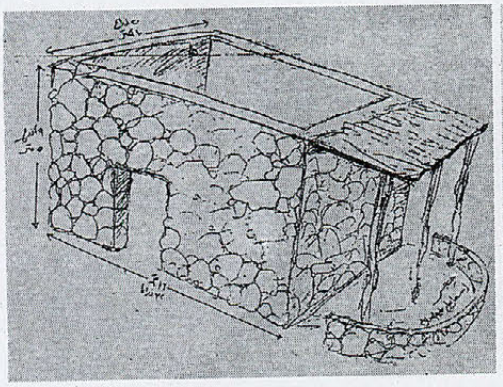
---

[١] الربوة: هي ما أرتفع عن الأرض، كالتل الصغير، وكانت الحزورة سوقا في هذا المكان جهة دار أم هانئ رضي الله عنها، وكان عندها بئر العجول.

مستطيلة نسبياً في هذا الرسم (شكل ٤)، فإن هذا غير صحيح، لأن الحِجْر في شكله ومساحته في هذا الرسم مطابقاً لما في رسوم العصور الأخرى، وهذا خطأ ويفترض أن يكون أصغر مساحة، علماً بأن مساحة الكعبة قد اختلفت في عهد النبي ﷺ كما جاء في الروايات التي سأذكرها بعد قليل. وعلى ذلك فإن حِجر إسماعيل في هذا التصور يفترض أن يكون أصغر حجماً ومسقوفاً، والكعبة أكبر مساحة.



شكل ٣: رسم يُوضح بأن (الكعبة) البيت ليس له سقف.



شكل ٤: رسم تقريبي للكعبة زمن إبراهيم عليه السلام، موضحاً عليه مقاسات الكعبة.

مقاسات الكعبة الصحيحة

قال الأزرقي في تاريخه عن ابن إسحق، إن الخليل عليه السلام لما بنى البيت جعل طوله في السماء تسعة أذرع،[٢] وجعل طوله في الأرض من قِبل وجه البيت الشريف (الجدار الشرقي للكعبة) من الحَجر الأسود إلى الركن الشامي اثنين وثلاثين ذراعاً، وجعل عرضه من قبل الميزاب من الركن الشامي إلى الركن الغربي (الجدار الشمالي) اثنين وعشرين ذراعاً، وجعل طوله في الأرض من جانب ظهر البيت الشريف من الركن الغربي المذكور إلى الركن اليماني (الجدار الغربي للكعبة) واحداً وثلاثين ذراعاً، وطول عرضه في الأرض من الركن اليماني إلى الحَجر الأسود (الجدار الجنوبي) عشرين ذراعاً، وجعل الباب لاصقاً بالأرض غير مرتفع عنها وغير مبوب، حتى جعل لها تبع الحميري باباً وأُغلق بعد ذلك .. الخ.[٤] وهناك روايات أُخرى تُبين أن البيت لم يكن مسقوفاً زمن إبراهيم عليه السلام. ولكن أين باب الكعبة في هذا الرسم، والذي يفترض أن يكون في منتصف الجدار الشرقي للبيت لاصقاً بالأرض على هيئة فتحة مربعة أو مستطيلة.[٣] مع ملاحظة أن الكردي رحمه الله قد أخطأ أيضاً في عدم وضعه عريشاً مظللاً على الحِجْر (شكل ٥)، فحِجْر إسماعيل عليه السلام كان يعلوه عريش ملاصق لبناء الكعبة، وهذا ليس موجوداً في الرسم.

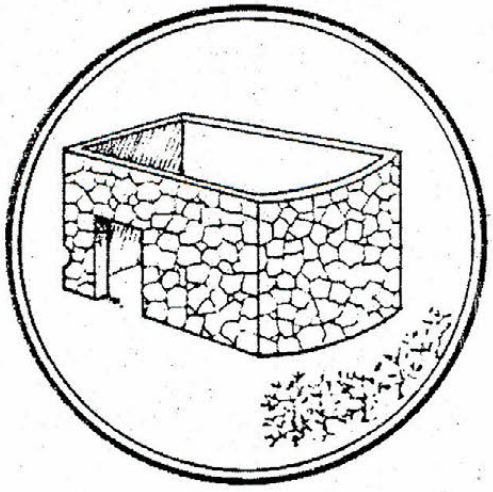
---

[٢] إذا اعتبرنا أن الذراع كان يُعادل (٥٠ سم) كما هو مشهور، مع أن الأصح أنه كان يُعادل (٧٠ سم)، فإن مقاسات الكعبة زمن إبراهيم عليه السلام تماثل الآتي: الجدار الشرقي = ١٦ م، والجدار الشمالي = ١١ م، والجدار الغربي = ١٥.٥٠ م، والجدار الجنوبي = ١٠ م، و ارتفاع الكعبة = ٤.٥ م.

[٣] انظر التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ج١ محمد طاهر الكردي.[٦]

الخطأ الثاني: الحجر

قال الإمام الأزرقي عند بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة: (وجعل إبراهيم عليه السلام الحجر إلى جنب البيت عريشا من أراك تقتحمه العتر، فكان زربا[٤] لغنم إسماعيل ...).[٣] وعلى ذلك يمكن أن يتصور أن العريش كان ظلة مستطيلة مقامة على ثلاثة عمد أو ستة عمد والحجر أسفلها مقوسا من الجهة الشامية بأحجار ومفتوحا من الجهتين الشرقية والغربية مما يلي الكعبة شبيها بوضع الفتحتين في الحجر الآن .. إلا أن ثلثه كان داخل الكعبة.



شكل ٥: تصور الكردي لبناء الكعبة زمن إبراهيم عليه السلام.[٦]

أورد البخاري في صحيحه عن عائشة قالت: قال لي النبي ﷺ: "يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض (أي بابها بالأرض) وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنيت الكعبة".[٥]

وفي رواية أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الجدار: "أمن البيت هو؟ قال: نعم". وفي رواية "لولا أن قومك حديث عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تنكره قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر في البيت".[٦]

قال النووي في شرح مسلم، قال أصحابنا: ستة أذرع من الحجر (ما يقارب ثلاثة أمتار) مما يلي البيت محسوبة من البيت بلا خلاف، وفي الزايد خلاف.

مما سبق يتبين لنا أن عدم احتواء الرسم أو التصور على ظلة ملاصقة أو مقاربة للكعبة من الجهة الشامية يعد الخطأ الثاني في هذا الرسم. وهذه الظلة تعبر عن العريش (أي: الحجر) زمن إسماعيل عليه السلام. وإليك أخي القارئ بيان ما كانت عليه الكعبة مساحة وحجما (جدول ١) من زمن إبراهيم عليه السلام حتى عهد قريش.

---

[٤] الزرب: حظيرة الغنم.

[٥] للاستزادة انظر: ذرع الكعبة من داخلها وخارجها: الفاسي، تقي الدين، ج١ ص ١٠٧ الى ص ١١٢. دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٥٥م.

[٦] الجدر: هو حجر إسماعيل.

جدول ١: بيان مقاسات الكعبة المعظمة وحجر إسماعيل عليه السلام[٥، ص ص ٤١] وهي المقاسات ذاتها للكعبة المشرفة حتى عصرنا الحاضر.

الوصف	المقاس	
	متر	سم
مقدار ارتفاع الكعبة من الأرض إلى السماء.	١٥	٠٠
مقدار طول الكعبة من الجهة الشرقية التي بها الباب.	١١	٥٨
مقدار طول الكعبة من الجهة الغربية.	١١	٩٣
مقدار طول الكعبة من الجهة اليمنية أي ما بين الركنين.	١٠	١٣
مقدار طول الكعبة من الجهة الشامية، أي من جهة حجر إسماعيل.	١٠	٢٢
مقدار ارتفاع الحجر الأسود عن الأرض.	١	٥٠
مقدار ارتفاع الكعبة عن الأرض.	٢	٠٠
مقدار طول باب الكعبة.	٣	٠٠
مقدار فتحة حجر إسماعيل من الجهة الشرقية.	٢	٦٥
مقدار فتحة حجر إسماعيل من الجهة الغربية.	٢	٨٥

الخطأ الثالث والرابع: موقع مقام إبراهيم عليه السلام وموقع الحجر

في البحث المطول لمحمد طاهر الكردي حول مقام إبراهيم[٦، ج٤ ص ص ١٠ ـ ٦٥] يقول رحمه الله: فالذي نراه أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن فرغ من بناء البيت وضعه (أي المقام) إما داخل الكعبة أي في الحفرة التي حفرها في بطنها على يمين الداخل وكان عمقها ثلاثة أذرع لتكون بمثابة الخزانة يوضع فيها ما يهدى للكعبة، وإما وضعه ملاصق للكعبة عند بابها. فلا يعقل أنه وضعه (أي المقام) في محله اليوم بقرب زمزم بعيدا عن الكعبة مسافة أذرع بدون سبب، وأي سبب لذلك و لم يأمره الله تعالى بالتوجه إليه حين الصلاة كما أمر الأمة المحمدية بذلك.

إن حجر المقام ياقوتة من يواقيت الجنة كالحجر الأسود كما جاء في رواية عبد الله بن عمرو بن العاص، وأن خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام قام عليه حين بناء الكعبة، وقام عليه كذلك حينما أذن في الناس بالحج كما أمره الله تعالى، وأن قدميه راسختان على هذا المقام وأنه من الآيات البينات كما في صريح الآية.

قال: علمنا أن إبراهيم لا يفرط في هذا المقام المكرم ويبعده عن الكعبة إلى جهة زمزم، بل إنه بعد أن انتهى من غرضه منه حفظه في الحفرة التي في باطن الكعبة أي في الجب، ليبقى دهرا طويلا حتى يأتي نبي آخر الزمان سيدنا "محمد" ﷺ الذي يأمره الله تعالى بالصلاة عنده، هكذا أطلع الله تعالى خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن بنى البيت على ما سيكون في شأن المقام في آخر الزمان، وهكذا, حفظ لنا إبراهيم مقامه الكريم المقدس الذي فيه أثره الخالد كما أمره الله تعالى، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يفعلون شيئا في أمور الدين إلا بوحي وإلهام من الله الملك العزيز العلام. ثم إن إسماعيل عليه الصلاة والسلام لم يحرك المقام و لم يخرجه من جوف الكعبة، لأنه

يعرفه حق المعرفة فلماذا يخرجه من موضعه وهو لم يؤمر بالصلاة خلفه، وإنما حافظ عليه محافظة تامة وكذلك أولاده من بعده.

يستفاد مما تقدم أن وجود حجر المقام في التصور الأول في الموقع الحالي نفسه، غير صحيح، وهذا يعد الخطأ الثالث في هذا التصور.

الخطأ الرابع: موقع الصفا

أما الخطأ الرابع فهو أن موقع الصفا غير صحيح، وينبغي أن يكون الموقع إلى جهة الجنوب قليلا.

الخطأ الخامس: المساكن

والخطأ الخامس يكمن في أن الرسم يفترض أن يحوي بعض المساكن القليلة حول بئر زمزم وهي بيوت قبيلة جرهم، ويحتمل أنها بيوت متنقلة. وأما إسماعيل عليه السلام فكان له بيت مبني بالحجارة وكان لباب بيته عتبة، وهكذا كانت بيوت مكة للحماية من المطار والسيول والتربة، لكننا لا نعلم الجهة التي كان بها بيت إسماعيل عليه السلام.[٧]

الخطأ السادس: الدوحة[٨]

ومما يدخل ضمن الخطأ السادس في ملاحظاتنا هذه، وجود دوحة فوق زمزم زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ليست موجودة في الرسم الأول، ويقصد بالدوحة الشجرة وقد ورد ذكرها مرتين،مرة عند قدوم إبراهيم ﷺ لمكة أول مرة، ومرة عند قدومه لبناء الكعبة، حين كان إسماعيل يبري سهاما له تحت هذه الدوحة. إلا أنه قد ثبت أن إبراهيم عليه السلام قد أتى مكة أربع مرات.

مكة المكرمة زمن قصي بن كلاب

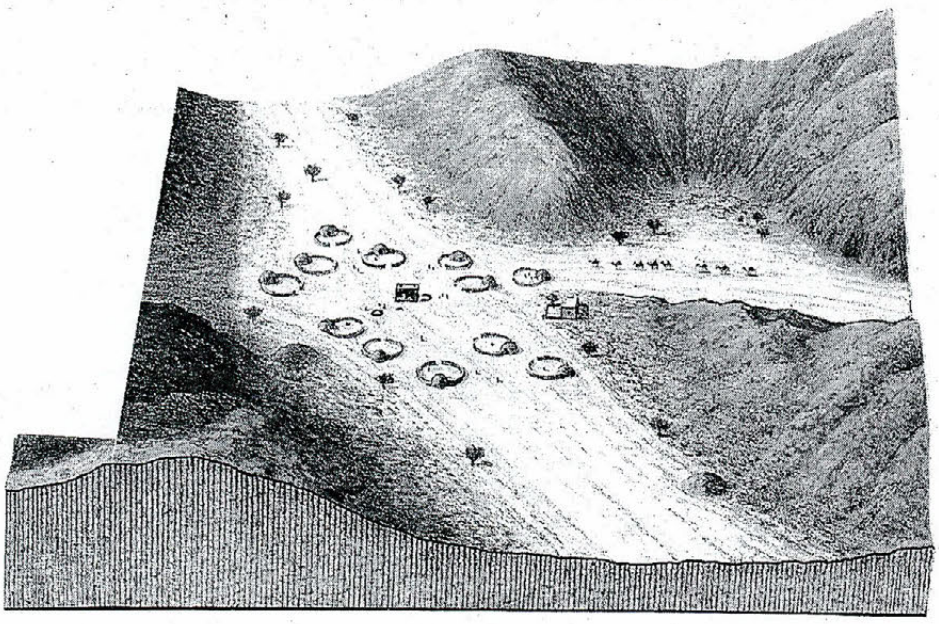
التحقيق في دار الندوة والدور المستديرة حول الكعبة في التصور الثاني الذي يرجع إلى عصر قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي ﷺ سنة ١٥٧ قبل الهجرة ٤٧٠م (شكل ٦). يقول فؤاد علي رضا:[٧] وأنزل قصي قريشا بطح مكة وظواهرها، وبنى دار الندوة، فإذا أعضلت مشكلة اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فتشاوروا فيها.. ثم فصلوا، وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام، وفيها كل المعاملات والعلاقات الاجتماعية، والاقتصادية.. إلخ.

---

[٧] أنظر حديث تغير عتبة الباب الذي يرويه ابن عباس عن النبي ﷺ البداية والنهاية – الحافظ بن كثير ج١ ص ص ١٥٥- ١٥٦.

[٨] الدوحة: هي الشجرة التي استظلت بها هاجر وإسماعيل عليهما السلام عند زمزم.

وفي التاريخ القويم للكردي[٦، ج٣ ص ١٣١] ما نصه: "وقبل قصي كانت القبائل من عمالقة وجرهم وخزاعة وقريش وغيرهم، يسكنون في شعاب مكة ويتركون حول الكعبة إحتراما لها وتعظيما لشأنها، فلا يجترئ أن يبني أحد بجوارها دارا ولا جدارا". وفي أخبار مكة للأزرقي،[٣، ج١ ص ٨٧] وتاريخ الكردي، [٦، ج٢ ص٨٧] وأيضا الجامع اللطيف:[٨، ص ص ٧١١] "وكانت القبائل في العصر الجاهلي تسكن شعاب مكة وما حولها، ولا يسكنون بقرب الكعبة المشرفة تعظيما لحرمتها. فلما آل أمر البيت إلى قصي بن كلاب وهو الجد الخامس لرسول الله ﷺ، أمر قومه أن يبنوا منازلهم حول الكعبة المشرفة ليهابهم القوم من حولهم، وخاصة إذا أتوا إليهم فلا يقاتلونهم، وقد تركوا للطائفين مقدار المطاف (الدائر حول الكعبة قديما) وجعلوا ارتفاع بيوتهم أقل من ارتفاع الكعبة احتراما وتعظيما لها.[٦، ج٣ ص ص ١٣١] كما توجد أقوال تبين أن شعاب مكة كانت مسكونة منذ العصر الجاهلي مثل شعب عامر. وقد قسم (قصي) جهات الكعبة المشرفة بين القبائل العربية، لذا يعتبر قصي بن كلاب أول من بدأ بالبناء حول الكعبة المشرفة، وبنى دار الندوة ليحكم فيها أمور قريش الواقعة يمين الشكل أعلاه، كما أمر أن لا يدخل دار الندوة من قريش للمشورة إلا من بلغ سن الأربعين من عمره، أما أولاده فيدخلونها جميعا ومن حالفهم.



شكل ٦: رسم يوضح مكة المكرمة زمن قصي بن كلاب.

أقول: وقد سميت دار الندوة لاجتماع القوم فيها للتشاور وإبرام الأمر وعقد الألوية في الحروب الداخلية والخارجية، وتقع دار الندوة في الرواق الشامي من المسجد الحرام ويوجد باب إلى الآن باب يدعى بباب الندوة.

ومن التاريخ تبين لي أن هذه الدار كبيرة نسبيا ومستطيلة من الجنوب إلى الشمال، أكبر مما هو موضح بالرسم بحيث أنها أدخلت بالمسجد الحرام في العصر العباسي الثاني في توسعتين مختلفتين فهي تقع ما بين المقام الحنفي شمال الكعبة جهة الحجر إلى الزيادة التي بعد الرواق الشمالي للمسجد الحرام قديما. فالجزء الأول من دار الندوة أدخل في المسجد الحرام في العصر الأموي ثم أبو جعفر المنصور، ثم المعتضد بالله أدخل الجزء الأخير في المسجد. كما

سيأتي، وقيل أنها دخلت في المسجد الحرام في توسعات عدة مما يدل على وجودها أو وجود جزء منها حتى عهد المهدي. فقد روى الإمام الأزرقي[٣، ج٢، ص ص ٢٨] أن أمير المؤمنين حج سنة ستين ومائة (١٦٠هـ) فنزل دار الندوة.. إلخ. كما أن الفاسي[٩] ذكر ما نصه: (إن إسحق بن أحمد الخزاعي قال في خبر زيادة الندوة أن الساعي فيها كتب إلى وزير المعتضد العباسي يحسن له جعل ما بقى من دار الندوة مسجدا، ويقول إن هذه مكرمة لم تتهيأ لأحد من الخلفاء بعد المهدي، وذكر إسحق الخزاعي شيئا من خبر هذه الزيادة، وملخص ذلك أن الساعي فيها سأل قاضي مكة محمد بن أحمد المقدمي وأميرها عج بن حاج مولى أمير المؤمنين (يعني المعتضد العباسي) أن يكتبها فيها بمثل ما كتب فكتبها، فعرضت كتبهم على المعتضد فأمر المعتضد بعمارة دار الندوة مسجدا يوصل بالمسجد الكبير، وأخرج لذلك مالا عظيما فحمل إلى قاضي بغداد يوسف بن يعقوب فانفذ بعضه صفائح وانفذ بعضه على يد ابنه عبد الله بن يوسف في وقت الحج وقدم معه برجل يقال أبو الهياج الأسدي فوكله بالعمل وخلف معه عمالا وأعوانا لذلك، وأخرجت القمائم من دار الندوة وهدمت، ثم أنشئت مسجدا من أساسها بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالسياج المذهب المزخرف ثم فتح لها في جدار المسجد الكبير اثنا عشر بابا.. إلى آخر الوصف.[٩، ج١، ص ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧]

يستفاد مما تقدم أن دار الندوة موقع جهتها الصحيح شمالي الكعبة، كما هو في الرسم، ولكنها كبيرة جدا بدليل إدخالها في المسجد الحرام في توسعتين مختلفتين.[٩] فهي ليست عبارة عن حجرة واحدة كبيرة كما هو مرسوم، وإنما المقصود بالدار البيت بمرافقه، فالدار تشمل عدة حجر يتوسطها فناء كعادة بيوت العرب، فدار الندوة يحتمل أنها على هذه الصفة مع كبر واتساع مساحتها وحجمها على أن تكون إحدى حجرها عبارة عن حجرة كبيرة مخصصة لاجتماع القوم.

استدارة البيوت حول الكعبة

لم يكن من شأن العرب بناء بيوت ذات أفنية مستديرة كما هو مبين في التصوير الثاني، والغريب احتواء كل بيت على حجرة واحدة فقط، وهذا أمر يبعد تصوره، فالبيت لابد له من مرافق كحجر للجلوس، وأخرى للنوم وغيرها لتخزين المؤونة، وحظائر للماشية، حيث أن أهل مكة عرفوا بالتجارة فلهم رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف، كما أنهم عرفوا بتربية الماشية شأنهم شان العرب من حولهم، وقد بارك الله لهم في اللحم، ولم يكن لهم عمل على العموم غير تلك المهنتين (التجارة والرعي) فلا زراعة عندهم ولا بحر يجاورهم يتكسبون منه.

ونعود مرة أخرى فنقول: إن تعمير البيوت بشكل مستدير (كما في الوصف الثاني) بحجرة وفناء مكونة بمجموعها أشكال حلقات، فإن ذلك تصور غير صحيح زمن قصي بن كلاب عام ١٥٧ قبل الهجرة ٤٧٠م. إلا أن ابن ظهيرة[٨، ص ص ٢٦] قد انفرد بذكر أن حميد بن زهير أول من بنى بيتا مربعا بمكة ولا أدرى ماذا يستفاد من ذلك

[٩] لكن في الرسم بيوت قليلة جدا حول الكعبة زمن قصي، وهذا لا ينسجم مع المذكور أن القبائل ابتنت وسكنت حول الكعبة.

بالنسبة لهذا التصور. وأقول إذا كانت مكة عامرة منذ زمن إسماعيل عليه السلام، أي قبل عهد قصي بألفي عام، وقد أمر قصي القبائل أن تبني بجوار الكعبة فهل يعقل أن تكون كما في هذا التصور على شكل أبيات قليلة جدا مجاورة للكعبة.؟

وصف بيوت مكة في العصر الجاهلي

يقول الدكتور علي الخربوطلي صاحب كتاب تاريخ الكعبة: إن مكة المكرمة كانت تحوي من البيوت ما هو أكثر عددا وأجمل شكلا، وكانت البيوت فخمة تقدر بالذهب، وكانت مليئة بالفرش والوسائد وأدوات الزينة والأناقة التي كانت تتوفر في حياة أولئك العرب.[١٠]

ملاحظة على هيئة وشكل الكعبة زمن قصي بن كلاب

جاء في مخطوطة المأموني وتاريخ القويم أن قصي بن كلاب بعد ولايته للبيت الحرام جمع النفقة لبناء البيت الحرام ثم هدم الكعبة المشرفة وبناها بناية حسنة لم تبن مثلها من قبل وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل، ويقال: إنه جعل طولها في السماء خمسة وعشرين ذراعا حوالي (١٥م على اعتبار أن الذراع يساوي ٦٠ سم). وبناء على ذلك، فإن التصور الثاني لمكة والكعبة أنها صغيرة المساحة وقصيرة الارتفاع، فإن ذلك تصور خاطئ لما سبق بيانه، ثم إن الكعبة لم ينقص من مساحتها إلا في عهد قريش قبل البعثة حيث أن أموال النفقة الحلال لم تكف لبناء الكعبة على مساحتها الأصلية. فقد ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: "ألم ترى أن قومك قصرت بهم النفقة ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة، وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا، وأدخلت فيها الحجر".

وأما كسوة الكعبة فلم تكن كسوة سوداء في الجاهلية، وإنما كانت تكسى الكعبة بالجلود والقباطي (قماش مصري أبيض) وكذلك البرود والوصائل اليمانية (وهي ثياب مخططة يمانية) والنمارق العراقية والنماط والحبر اليماني وغير ذلك.[١١] وبناء على ذلك فيمكن تصور كسوة الكعبة زمن قصي بأن عليها برودا يمانية بيضاء مخططة بخطوط زرقاء أو سوداء خلافا لما هو في التصور من أن الكسوة سوداء. إذ أن الكسوة السوداء للكعبة لم تعرف إلا في العصر العباسي المتأخر. ثم إن بئر زمزم لم تكن موجودة زمن قصي لأنها طمرت زمن جرهم التي استوطنت مكة زمن إسماعيل عليه السلام، (قيل أن الذي طمرها عمرو بن لحي الذي جلب الأصنام إلى مكة) ثم حفرها عبد المطلب جد النبي ﷺ (في القصة المشهورة التي يرويها علي بن أبي طالب ﷺ)، وذلك بعد زمن قصي بمائة عام على التقريب وذلك قبل عام الفيل.[١٢]

ومما سبق يتضح أن بئر زمزم كبئر لم تكن موجودة زمن قصي خلافا لما في الرسم الذي ترى فيه شكل البئر في الجهة الجنوبية الشرقية من الكعبة، وأما بئر العجول فممكن إظهارها في الرسم في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد الحرام ومكانها عند مئذنة الجذوة عند دار أم هانئ رضي الله عنها. وهذه البئر هي التي أمر قصي بحفرها

مع الآبار التي حفرت بمكة. يقول الأزرقي[٣، ج١ ص ص ٦٤] ما نصه: "وكان قصي بن كلاب قد حفر بمكة آبارا، وكان الماء بمكة عزيزا إنما يشرب الناس من آبار خارجة عن الحرم، فأول ما حفر قصي بمكة بئرا يقال لها العجول كان موضعها في دار أم هانئ بنت أبي طالب بالحزوة، وكان العرب إذا قدمت مكة يردونها فيسقون منها ويتراجزون عليها". ويقول الكردي رحمة الله نقلا عن الأزرقي: إن هذه البئر مع دار أم هانئ قد دخلتا في المسجد الحرام في توسعة المهدي العباسي سنة ١٦٧هـ مائة وسبع وستين من الهجرة. إلا أنني أتفق مع هذا التصور في عدم إظهار الأصنام وإلا لظهرت فيما حول الكعبة وخاصة فوق الصفا وفوق المروة. فالأصنام كانت قبل زمن قصي وبعده حتى عهد النبي ﷺ. ومما يميز فناء الكعبة زمن قصي أنه كان يوضع فيه حياض الماء المصنوعة من الدم لسقيا الحاج والمعتمر. ولكن السؤال كيف يمكن رسمها حول الكعبة عن بعد كما في هذا التصور ولا يمكن رسمها بوضوح إلا بتغيير مقياس الرسم بتكبير محور الكعبة وما حولها. مما سبق يتضح أن هذا التصور (زمن قصي) يحوي أخطاء منها ما يتعلق بحجم الكعبة وكسوتها وشكل دار الندوة، وبئر زمزم وبئر العجول والدور المحدقة بالكعبة.

مكة المكرمة زمن فجر الإسلام

زمن التصور

في هذه الفترة كانت الأصنام حول الكعبة وفوقها وفي نواحي مكة المختلفة، ولو أعد التصور هكذا لظهر صنم أساف على الصفا بوضوح، إذ أن الأصنام لم تهدم وتزال إلا في السنة الثامنة بعد الهجرة وذلك في فتح مكة (أي بعد عشرين سنة من تاريخ هذا التصور)، وتجنبا لذلك فإنه من الممكن إعطاء الرسم لسنة ٨ هـ (شكل ٧) ويتجنب بذلك رسم الأصنام. مع تصحيح عبارة (في فجر الإسلام عام ١٢ قبل الهجرة ٦١٠م) لتتلاءم مع تاريخ فتح مكة سنة ٨هـ.

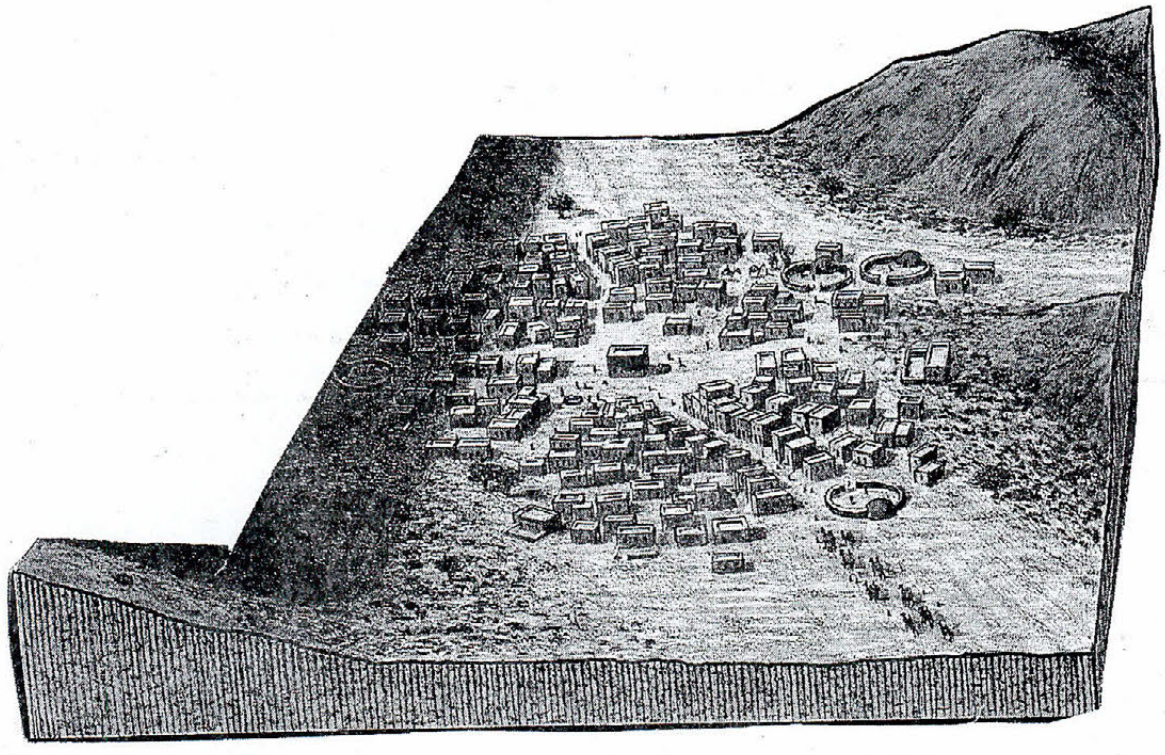
الأدلة على اتساع مكة المكرمة زمن النبوة

أم القرى: الاتساع العمراني الحقيقي لمكة أيام النبوة أكبر بكثير مما هو في هذا التصور، يقول رب العزة والجلال ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾[النعام، من الآية ٩٢] ومكة هي عاصمة الحجاز، فالحقيقة أن الاتساع العمراني كان يصل إلى شعب أبي طالب شرقا حيث بيت النبي ﷺ الذي ولد فيه وإلى المسفلة حيث دار أبي بكر الصديق ﷺ التي هاجر منها وإلى المعلاة أو الحجون شمالا (مقبرة أهل مكة قديما وحديثا) إذ إن المقابر في المدن أو القرى غالبا ما تكون خارج البلد أو خارج البناء وكذلك بطحاء مكة التي كانت علما على جزء من وادي مكة بين الحجون إلى المسجد الحرام.[١٣]

أقول: وهذه الأماكن الآنفة الذكر تبعد عن الكعبة وما حولها وهي خارج نطاق هذا الرسم، إذ إن الرسم يوضح محدودية مساكن مكة كلها زمن النبوة وكأنها التي هي حول الكعبة فقط حسب هذا التصور. الأمر الآخر أن دور قريش في هذا التصور لا تحوي أفنية، والصحيح أنها كانت تحوي أفنية شأنها شأن بيوت العرب.

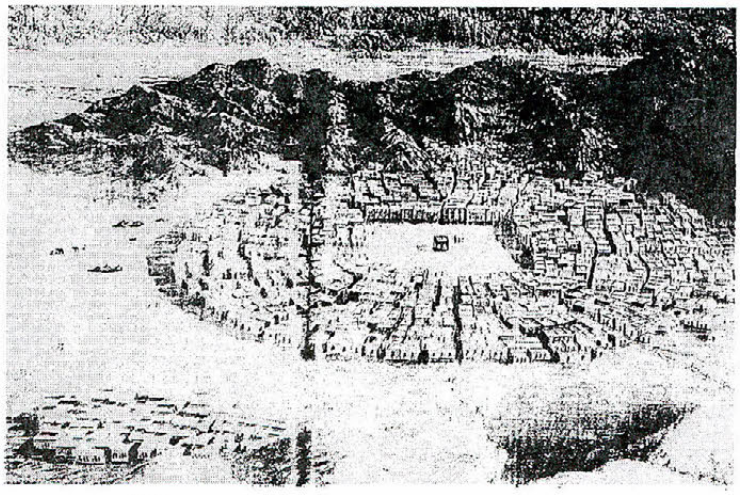
وأقول: لا يحتاج الأمر إلى دليل لإثبات ذلك.

خروج قريش ومن حالفها لقتال النبي ﷺ في أحد بثلاثة آلاف مقاتل أغلبهم من مكة، فلا يعقل خروج ألفي مقاتل مثلا من بيوت ضئيلة العدد كالموجودة في هذا التصور، ناهيك عن بعض بيوت المهاجرين المسلمين، أيضا: وقد خرج مع النبي ﷺ ألفا مقاتل من مكة بعد الفتح لقتال هوازن وثقيف. وقد ذكرنا سابقا أن العمران في مكة قد ازدهر قبل النبوة بزمن طويل (زمن قصي) حول الكعبة، وكانت مكة عامرة قبل ذلك منذ زمن إسماعيل عليه السلام.



شكل ٧: رسم يوضح مكة المكرمة زمن فجر الإسلام.

ومما يجعل هذا التصور مستبعدا، أن القبائل التي كانت تقطن حول الكعبة كثيرة، بدليل أن بعضها لها أبواب بأسمائها تطل على المسجد الحرام، كباب بني شيبة وبني سهم، وبني جمح، وبني هاشم، وبني عدي، وبني مخزوم، وغيرهم. هذا وقد أدرجت بعض التصورات من كتاب "THE MARCH OF ISLAM"[١٤] التي تصور مكة زمن النبوة أقرب إلى الحقيقة من التصورات التي نحن بصددها (شكل ٨).



شكل ٨: تصور لمكة المكرمة زمن فجر الإسلام. [١٤]

أعطى النبي ﷺ عتبة بن فرقد موضع داره بمكة يبنيها مما يلي المروة.[١٥] قلت: وهذا مما يدل أن المساكن زمن النبوة كانت موجودة عند المروة وما حولها وهي منطقة تبعد نسبيا عن محيط المسجد الحرام في ذلك العهد. ونقول أيضا أن دار خديجة التي تقابلها دار أبي سفيان كانتا شرقي المروة في مكان يسمى (المدعى).[١٠] لكن يقال أن دار أبي سفيان في مكان يقال له القبان. وأيضا ومما يبين أن دار أبي سفيان في المدعى قرب المروة، ما رواه الأزرقي عن علقمة بن نضلة قال: وقف أبو سفيان ابن حرب على ردم الحذاءين فضرب برجله فقال: سنام الأرض أن لها سناما، يزعم ابن فرقد (عتبة بن فرقد السلمي) أني لا أعرف حقي من حقه، له سواد المروة ولي بياضها.. إلى أن قال عمر رضي الله عنه: إن أبا سفيان لقديم الظلم، وليس لأحد حق إلا ما أحاطت عليه جدرانه.[٣، ج٢ ط٣ ص ص ١٦٤-١٦٥]

دار أبي بكر رضي الله عنه كانت في المسفلة وهي خارج نطاق الرسم وهي الدار التي هاجر منها النبي ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وهذه الدار كان لها بابان، وقد خرجا من الباب الخلفي. ودار أبي بكر أصبح مكانها الآن مسجد في المسفلة باسمه رضي الله عنه. وهذا يعني أن الدار كانت تبعد نسبيا عن محيط المسجد الحرام قديما. ولا يعني كلامنا أن الامتداد العمراني في مكة زمن النبوة كان متصلا من المسجد الحرام إلى المسفلة أو من المسجد إلى شعب أبي طالب، أو من المسجد إلى المعلاه أو إلى البطحاء، لأن هذه الأماكن تتعلق بالأقوام الذين سكنوها وهي بمثابة الضواحي للمدينة في عصرنا الحاضر.[١١]

قلت: وهناك أدلة أخرى تبين أن مساكن مكة كانت بين جبلين (الأخشبين). ولكن ما هما الجبلان؟ هل هما جبل أبي قبيس وجبل عمر، أم جبل هندي أم الخندمة أم قعيقعان. والصحيح أنهما جبل في الطائف، وجبل في مكة.

---

[١٠] أنظر خرائط مكة المكرمة لزكي الفارسي، والمبين فيها باللون الأخضر موقع بيت خديجة ودار أبي سفيان شرقي المسعى (أي خارج نطاق هذا الرسم) ومكان هاتين الدارين في عصرنا الحاضر عند الباب الرئيسي لسور ساحة الصلاة شرقي المسعى.

[١١] للاستزادة، أنظر وصف فتح مكة في كتب السيرة وغيرها.

والجبل الذي في مكة هو جبل قعيقعان (الذي يتفرع منه عدة جبال شمالي المسجد الحرام. فهو يشرف على غالب مكة القديمة).

أما فيما يتعلق بسكان مكة فقد أوردت كتب السيرة أن المسجد الحرام قد غص بأهالي مكة في الفتح هذا غير الذين دخلوا دار أبي سفيان وغير الذين أغلقوا عليهم أبواب بيوتهم، وغير الذين خرجوا إلى رؤوس الجبال هذا ما يعني أن مكة كانت عامرة بالسكان. وقد ذكرت أنفا خروج آلفي مقاتل من مكة بعد الفتح لقتال هوازن وثقيف. هذا غير النساء والصبيان مما يبين أن مكة كان يقطنها أكثر من عشرة آلاف نسمة، فأين الألف بيت مثلا من البيوت الضئيلة العدد كالتي في هذا التصور. ومما يبين اتساع مكة، دخول جيوش الفتح من فجاجها المختلفة العامرة بالبيوت. ويقال أنه كان لمكة أربعة مداخل.[١٢،١٣]

سعة بيوت مكة: مما يبين سعة بيوت مكة أن عثمان ﷺ كان له ما يشبه القصر بمكة، وأيضا الفاكه ابن المغيرة كان له ما يشبه الديوان غير بيته الذي يسكنه. كذلك الأمر بالنسبة لعبد الله بن جدعان، وغيره.

أعلى مكة وأسفلها: ذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن أبا سفيان وبديلا وحكيم بن حزام كانوا وقوفا مع العباس عند خطم الجبل (في فتح مكة) ، وذكر أن سعدا لما قال لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فشكى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺفعزله عن راية الأنصار وأعطاها الزبير بن العوام فدخل بها من أعلى مكة وغرزها بالحجون، ودخل خالد من أسفل مكة فلقيه بنو بكر وهذيل فقتلهم بالخزوة حتى بلغ قتلهم باب المسجد.[٤، ج٤ ص ص ٢٩] أمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء ودخل ﷺ من كدى.[١٤] ذكر موسى بن عقبة عن الزهري .. قول النبي ﷺ من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .. وكان بأعلى مكة .. ومن دخل دار حكيم بن حزام .. وكانت بأسفل مكة ومن أغلق بابه فهو آمن.

قلت: ورد بأن أعلى مكة هي الحجون حيث أقام رسول الله ﷺ وهي شمال شمالي المسجد الحرام عند المعلاه، وهذا مما يخالف أن أعلى مكة هو جهة شرقي المسجد الحرام. أما أعلى المسجد الحرام فالمقصود به ما خلف مقام إبراهيم عليه السلام إلى آخر المسجد من الجهة الشرقية.

بطحاء مكة: أنظر إقامته ﷺ في هذا الموضع من مكة في الفتح وفي حجة الوداع مثل إقامته في قبة من آدم (خيمة من جلد) وصلاته في ذلك الموضع، وكذلك غسله وفاطمة تستره، كل ذلك في الأبطح أو البطحاء خارج مساكن مكة. فالبطح هي خارج مكة قديما يحدها شمالا الحجون (مقبرة خديجة) وجنوبا مساكن مكة التي تلي المسجد الحرام. قال ابن كثير (في حجة الوداع): ثم سار صلوات الله وسلامه عليه بعد فراغه من طوافه بين الصفا والمروة وأمره بالفسخ لمن لم يسق الهدي، والناس معه حتى نزل بالأبطح شرقي مكة فأقام هناك.[٤، ج٥، ص ص ١٦٧]

---

[١٢] أنظر تفسير الآية ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾. [الحجر ٩٠، سورة الحجر]

[١٣] أنظر أيضا فيما يتعلق بخيف بني كنانة – حيث تقاسموا على الكفر (البداية والنهاية) الحافظ ابن كثير. جزء٤ ص ٢٩٦.

[١٤] أنظر البلاذي، عاتق غيث. *معالم مكة التاريخية والأثرية*. أنظر أيضا فيما يتعلق بأذاخر وهي بأعلى مكة. [٤، ج٤ ص ص ٢٩٦]

الحجون: يقول البلادي في معرض كلامه عن الحجون (مقبرة خديجة) ص ٨٠: بل أن لدينا نصوصا من أهمها نص الأزرقي نفسه، على أن الحجون هو الجبل الذي يمتد من ربع الحجون اليوم مشرقا بشمال، ويكون وجهه الشرقي جبل أذاخر، الذي يشرف على ثنية أذاخر التي تفضي على الخرمانية (حائط خرمان) وهي الثنية التي دخل منها رسول الله ﷺ يوم الفتح، فإذا جبل الحجون هو ذلك الجبل الذي تقع مقبرة أهل مكة القديمة بسفحه من الجنوب الغربي.

ذي طوى: تقرب من مساكن مكة إذ أن حدود مكة تصل إلى ذي طوى. قال ابن كثير: وحاصل ذلك كله أنه عليه السلام لما انتهى في مسيرة إلى ذي طوى وهو قريب من مكة أمسك عن التلبية.[٤، ج٥ ص ص ١٥١]

بئر زمزم لا يمكن إظهارها في هذا التصور لأنها كانت داخل بناء خاص بها: ويستبعد أن تكون بئر زمزم مكشوفة هكذا زمن النبوة كما في التصور، إذ إن مكة يرد عليها الحجاج كل عام، فلا يعقل أن تكون البئر مكشوفة، ومن الأرجح أن تكون داخل بناء لا سقف له، إذ أن بعض الآبار زمن النبوة كان يحيط بها بناء حماية لها من الصبيان فبئر أريس مثلا بالمدينة كان يحيط بها جدار له باب. ومما يبين أن بئر زمزم كانت داخل حجرة زمن النبوة، أن أبا رافع مولى رسول الله ﷺ كان مشهورا بنحت الأقداح، عندما كان يعمل عند العباس ينحت له الأقداح في حجرة زمزم في المسجد الحرام.[١٦]

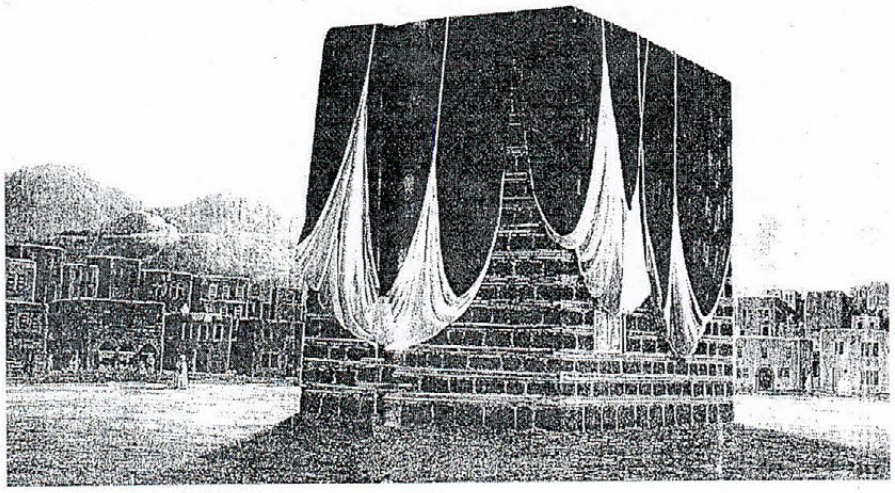
قلت: ومما يدل على أن زمزم كان بجوارها حوض حسب ما ذكره الأزرقي، أن عبد المطلب جد النبي ﷺ قد بنى حوضا على بئر زمزم ليسقي الحجاج منها.[٣، ج٢ ص ص ٤٣] وهذا أمر طبيعي أن يكون الحوض بجوار البئر لحجز الماء وللسقي. وهذا الحوض لعله كان خارج حجرة زمزم زمن النبوة.

كان ينبغي أن تبين بعض البيوت الأثرية ذات الأهمية حول المسجد الحرام والتي منها على سبيل المثال:

- دار الأرقم بن أبي الأرقم التي عند الصفا، والتي أجمع المؤرخون على أن مكانها على يمين النازل من الصفا، ومكانها الآن مدرسة صغيرة لتحفيظ وتعليم القرآن ضمن بناء مجهز بسلالم كهربائية، والباب المؤدى إلى هذه السلالم يسمى باب الرقم. لكن في الرسم لا توجد أي دار عند الصفا أو حتى بقربها.
- دار أم هانئ التي أسري منها النبي ﷺ وهي عند الحزورة (الجهة الجنوبية تماما من الكعبة) وقد تكلمنا عن الحزورة عند الكلام عن بئر العجول في زمن قصي بن كلاب، ومكان هذا الدار يقابلها اليوم باب أم هانئ، وهذا الباب على يمين باب الملك عبد العزيز في العصر الحاضر.
- بيت خديجة بالمدعى شرقي المسعى مما يلي المروة، وكان يقابلها دار أبي سفيان.
- دار عمر بن الخطاب ﷺ وكانت تقع في متصف المسعى وسيأتي الكلام عنها مفصلا ضمن ملاحظاتنا على زمن الدولة العباسية، وأيضا دار حصين التي تقع أيضا بين الصفا والمروة.[٤، ج٥ ص ص ١٦٠]

- دار العباس بن عبد المطلب في المسعى ملاصقة للجدر الشرقي من المسجد الحرام قديما على يمين باب علي ﷺ (أحد أبواب المسجد الحرام في الجهة الشرقية).[١٥]
- دار الندوة والتي سبق الكلام عنها في زمن قصي بن كلاب. أقول: (وقد أشرت لهذه الدور باختصار وإلا فالكلام يطول، وقد ذكرها مؤرخو مكة وبوبوا لها أبوابا في كتبهم وتكلموا عنها بإسهاب) أقول: وهذه الدور التي سبق الإشارة غليها يمكن التدليل عليها في هذا التصور إما بالتلوين وإما بالترقيم، وذلك للتعرف على مكانها قديما وحديثا، أو عمل تصور آخر غير هذه التصورات يتعلق بأماكن الدور المشهورة حول المسجد الحرام.

كسوة الكعبة (شكل ٩): أما كسوة الكعبة التي تظهر في هذا التصور بأنها سوداء فإن هذا غير صحيح، لأن الكسوة السوداء لم تعرف إلا في العصر العباسي المتأخر. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: روى الفاكهي في كتاب مكة من طريق مسعر عن جسرة قال: أصاب جعفر بن كلاب لطيمة في الجاهلية فيها نمط من ديباج فأرسل به إلى الكعبة فنيط عليها. فعلى هذا هو أول من كسى الكعبة الديباج. وروى الدار قطني في المؤتلف أن أول من كسى الكعبة الديباج نتيلة بنت حبان والدة العباس بن عبد المطلب، كانت أضلت العباس صغيرا، فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة الديباج. وذكر الزبير بن بكار أنها أضلت ابنها ضرار بن عبد المطلب شقيق العباس فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت فرده عليها رجل من جذام فكست الكعبة ثيابا بيضا. قال الحافظ: وهذا محمول على تعدد القصة.



شكل ٩: رسم للمسجد الحرام والكعبة الشريفة زمن النبوة. [١٤]

[١٥] أقول: ودار العباس ﷺ القريبة من سقايته. يمكن إظهارها جيدا في هذا الرسم وذلك لأنها في الجهة الشرقية من المسجد. وقد اطلعت على الكثير من المخطوطات المصورة للمسجد الحرام قديما، فوجدت أنها في نفس المكان الآنف الذكر.

أقول: والمشهور أن أول من كَسى الكعبة هو أبو كرب تبع الحميري أحد ملوك اليمن وذلك قبل الهجرة بمائتي عام. ويقول باسلامة: أما كِسوة الكعبة في الإسلام فقد أخذت شكلاً ألطف من شكلها في الجاهلية. فروى الحافظ ابن حجر في الفتح من رواية الواقدي عن إبراهيم بن أبي ربيعة قال: كُسِيَ البيت في الجاهلية النِطاع،[١٦] ثم كساه رسول الله ﷺ الثياب اليمنية، ثم كساه عمر وعثمان القَباطي ، ثم كساه الحجاج الديباج.

وقال عبد الرازق عن ابن جريح أُخبرت أن عمر ﷺ كان يكسوها القباطي، وأخبرني غير واحد أن النبي ﷺ كساها القباطي والحبرات، وروى أبو عروبة في أوائل له عن الحسن قال: أول من لَبَّس الكعبة القباطي النبي ﷺ عام . ١هـ. هذا وقد ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل مكة وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاءه رجل فقال: إن أبن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال "اقتلوه".

ملحوظة: يستفاد مما تقدم أن الغالب على كسوة الكعبة زمن النبوة هي الكسوة البيضاء المخططة بالأزرق أو الأسود، وهذا مخالف لما في هذا التصوّر من أن الكسوة سوداء. ومن المعروف أن الديباج والقباطي ثياب بيضاء اللون. كما أُستبعد الأنطاع بأنها كانت كسوة الكعبة زمن النبوة للأدلة السابقة، وكذلك فأن الكسوة قد وردت بأنها أستار وبأنها أثياب، و لم ترد بأنها أنطاع، من ذلك ما ورد في قصة عبد يا ليل والتعلق بأستار الكعبة، وكذلك التعلق ببُردة أستار الكعبة في الحديث (ألا تستنصر لنا..) كذلك الحديث في فتح مكة (اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة).

أبواب المسجد الحرام زمن النبوة

يبدو، والله أعلم: أن المسجد الحرام زمن النبوة كان له أبواب، فقد ورد في السيرة: أن النبي ﷺ إذا دخل المسجد دخل من باب السلام أو باب بنى شيبة، وإذا أنهى طوافه خرج إلى الصفا من باب بني مخزوم، وإذا رقى الصفا استقبل البيت عياناً ودعى.

وروى مسلم في صحيحه عن جابر في "حديث طويل" بعد ذكره طوافه عليه السلام بالبيت سبعاً وصلاته عند المقام ركعتين قال: ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا. فلما دنا إلى الصفا قرأ "إن الصفا والمروة من شعائر الله" الآية. [٤، ج٥ ص ص ١٥٩]

وروى ابن كثير عن أبي جعفر وهو محمد بن علي بن الحسين عن جابر بن عبد الله قال: دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى فأتى النبي ﷺ باب المسجد فأناخ راحلته ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر فاستلمه.

السؤال: هل الأبواب هنا يقصد فيها الأزقة المفضية من المسجد إلى بيوت القوم، أم أنه كانت هناك فعلاً أبواب حقيقية عند منتهى هذه الأزقة مما يلي المسجد؟

---

[١٦] النِطاع: هي الجلود، وعلى أغلب الظن أنها كانت تُصنع من جلود الإبل، وكانت يُكسى بها الكعبة في الجاهلية.

أقول: لم يشر أحد من المفسرين كالطبري وابن كثير وغيرهما إلى وجود أبواب للمسجد الحرام في تفسيرهم للآية ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، [سورة التوبة، آية ١٩] ولعل عدم ذكر المفسرين لعمارة الأبواب في تفسيرهم لهذه الآية راجع لعدم أهميتها بالنسبة للتفاخر في عمارة الكعبة وسقاية الحاج.

أقول: لا يعني عدم تطرق المفسرين لذكر الأبواب في تفسيرهم لهذه الآية عدم وجودها في ذلك الزمن. إن مفهوم الباب يختلف عن مفهوم الزقاق، وإلا لقيل مثل: دخل من زقاق بني شيبة إلى المسجد، أو خرج إلى الصفا من زقاق بني مخزوم كما هو الحال في أزقة المدينة كزقاق بني زُريق لكن في السيرة: دخل من باب السلام وخرج من باب بني مخزوم. وقد ورد ذكر باب المسجد في خبر وضع الحجر الأسود والإحتكام إلى أول داخل يدخل المسجد الحرام، وذلك قبل البعثة بخمس سنوات.

وفي حال التسليم بوجود الأبواب، فإن ذلك يعني رسم أبواب في هذا التصور عند منتهى الأزقة المفضية إلى المسجد الحرام، ولكن كيف كانت أشكال الأبواب لو كانت موجودة فعلاً زمن النبوة؟ هل هي على شكل العقد الموجود في سوق عكاظ قرب الطائف؟ اعتقد أن هذا العقد المدبب هو من أسلوب العمارة في العصر العباسي، وأما عدد أبواب المسجد الحرام فيحتمل إنها كانت خمسة أو أكثر زمن النبوة،وذلك لأن المسجد الحرام زمن ابن الزبير كان به خمسة أبواب ولعلها كانت على محاذاة الأبواب القديمة زمن النبوة وسنأتي لذكر باب الحزورة وذلك في معرض كلامنا عن سوق الحزورة.

أسواق مكة زمن النبوة

هنا يهمنا ذكر بعض الأسواق التي بداخل مكة المتعلقة بالتصور الثالث زمن النبوة، ولسنا بصدد ذكر سوق ذي المجاز بعَرَفَة وسوق مجنة بأسفل مكة لبعدهما عن المسجد الحرام، أي: خارج نطاق هذا التصوّر. الحاصل أن الرسم لا يوضح وجود أي سوق، وإنما المرسوم فقط بيوت ودور محدقة بالكعبة. الحقيقة أن أسواق مكة كانت كثيرة ومزدهرة في العصر الإسلامي المبكر، ويحتمل أن لبعضها أصول ترجع إلى عصر النبوة، ولكن أُزيحت فيما بعد إلى نفس الجهة كما أُزيحت أبواب المسجد الحرام بمسمياتها إلى نفس الجهات، وذلك بعد توسعة المسجد. وقد ذكر الأزرقي، المولود في القرن الثاني الهجري، أنه كان بمكة ٣٠ سوقاً في زمنه.[٦، ج٦ ص ص ٢٢٦] إلا أنني سأسلط الضوء على سوق الحزورة وسوق المسعى لعلاقتهما بهذا التصور.

سوق الحزورة: عن عبد الله بن عدي بن حمراء ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفا على الحزورة من مكة وهو يقول لمكة: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني خرجت منك ما خرجت) رواه أحمد والحاكم والنسائي وابن ماجة وسعيد بن منصور والترمذي وقال حديث حسن صحيح). العزوة أو الحزورة اسم

لسوق في الجاهلية كانت في هذا المكان، (الجهة الجنوبية من الكعبة المعظمة) عند دار أم هانئ، وقد دخلت كل من السوق والدار في المسجد، وذلك في عمارة الخليفة المهدي العباسي للمسجد الحرام سنة ١٦٧هـ.[٣]

وقد ذكرت أنفاً أن الرواية التي تُبين سوق الحزورة أنها كان لها باب يطل على المسجد الحرام، وذلك في معرض كلامنا عن أعلى مكة وأسفلها.

سوق المسعى أو سوق مكة: لقد ذكر المؤرخ الأزرقي كثيراً عن الأسواق كما قلنا ذلك آنفاً، لكن أكثرها ما كان يقع جهة المسعى وما جاوره كسوق الليل والمدعى والقبان.

إن الجهة الشرقية من المسجد الحرام منذ القدم كانت سوقاً، ويسمى هذا السوق بسوق المسعى أو سوق مكة لأنه مشتمل على معظم المحلات والمتاجر ذات البضائع المختلفة، وهذا السوق ظل موجوداً حتى عهد قريب. وكذلك سوق المدعى المتصل بسوق الليل، وكلا هذين السوقين يقعان شرقي المسعى إلى جهة الشمال عند دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

ويقول الكردي: وسوق المسعى ليس بحديث، وإنما هو في هذا المكان من قديم الزمان، كما كانت الحزورة "عند باب الوداع" التي كانت فيها دار أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها، سوق مكة في الجاهلية.[٦، ج٦ ص ص ٢٢٨] وقد ذكر الأزرقي المقاعد والصناديق المخصصة لحفظ السلع زمن الجاهلية وزمن النبوة وما تلي ذلك من أزمنة وأشار الأزرقي إلى اتخاذ الخيام مكان هذه المقاعد فيما بعد وأنها مصنوعة من سعف النخيل، أقول: فلابد من أن تكون للبائعين متاجر مظللة تقيهم حرارة الشمس خاصة وقت الظهيرة لضرورة ذلك، سواء كان زمن النبوة أو بعده.

فأقول مرة أُخرى أن خلو الرسم (شكل ٧) من أي مظهر يدل على وجود سوق فإن هذا يعد خطأ، فالأسواق من المرافق الحيوية للمدن العربية لا تقوم إلا بها سواء كان ذلك قبل الإسلام أو بعده. كيف لا ومكة هي عاصمة الحجاز ومركزه التجاري ولقريش رحلة الشتاء والصيف؟!.

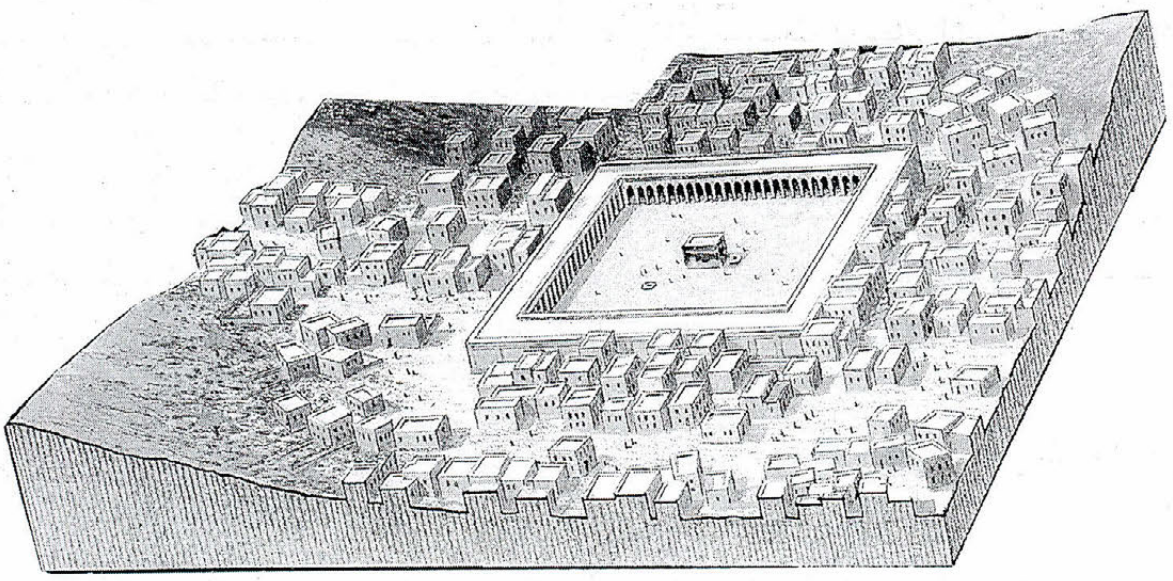
قلت مما يُبيّن أن المسعى كان سوقاً في زمن النبوة أن مقيس بن صبابة قد أدركه الناس في السوق فقتلوه وقيل قتله ابن عمه، وفي رواية أُخرى أنه قُتل بين الصفا والمروة، وهو من الذين أهدر النبي ﷺ دمهم في فتح مكة.[٤، ج٤ ص ص ٢٩٨-٢٩٩]

فأقول بعد ما تقدم: يمكن الجزم بوجود سوقين داخل مكة أو أكثر زمن النبوة ومن الممكن إدخالهما في هذا التصور بقرب المسجد الحرام، سوق مكة أو سوق المسعى، (ليس المعنى المسعى ذاته، وإنما جهة غربي المسعى وشرقي المسعى وشرقي الكعبة)، والسوق الآخر سوق الحزورة (جنوبي الكعبة)، أو في الركن الجنوبي الغربي من المسجد الحرام.

مكة المكرمة زمن الدولة الأموية (سنة ٩١هـ - ٧١٠م)

في البداية نود أن نذكر أن المسجد الحرام سنة ٩١هـ حسبما جاء في هذا التصور (شكل ١٠)، كان في زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك، الذي عمر المسجد الحرام سنة ٨٩هـ.

فقد وصف الأزرقي مؤرخ مكة هذه العمارة ما نصه: حدثنا أبو محمد إسحاق بن أحمد حدثنا أبو الوليد قال: قال جدي: ثم عمر الوليد بن عبد الملك بن مروان المسجد الحرام، وكان إذا عمل المساجد زخرفها، قال: فنقض عمل عبد الملك، وعمله عملا محكما وهو أول من نقل إليه أساطين الرخام، فعمله بطاق واحد بأساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين الذهب على شكل صفائح، قال: وأزر المسجد بالرخام من داخله، وجعل في وجه الطيقان في أعلاها الفسيفساء، وهو أول من عمله في المسجد الحرام، وجعل للمسجد شرفات، وكانت هذه عمارة الوليد بن عبد الملك. [٣، ج٢ ص ص ٧١-٧٢]



شكل ١٠: رسم يوضح مكة المكرمة زمن الدولة الأموية (سنة ٩١هـ - ٧١٠م).

مآذن المسجد الحرام

أقول: ونضيف إلى ذلك بأن الوليد هو أول من اتخذ المآذن في المسجد الحرام، إذ إنه في تلك السنين كان قد عمر مسجد دمشق وبنى المآذن فيه، وكذلك عمر مسجد المدينة من سنة ٨٨هـ إلى سنة ٩١هـ وبنى المآذن في كل

ركن من أركان المسجد (أي أن مسجد المدينة في زمنه كان يحوي أربعة مآذن)[١٧]، وعلى ذلك فإنه لا يُستبعد أن يبني للمسجد الحرام في تلك الفترة كذلك أربع مآذن، في كل ركن مئذنة واحدة.

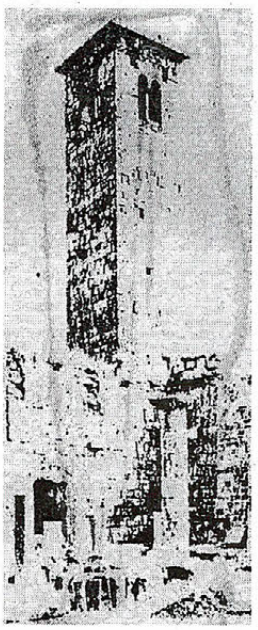
ومما يُبيِّن ذلك ما أشار إليه البخاري نقلاً عن الزمخشري قال: لما بلغ والي مكة خالد القسري ما قاله رجل من موالي الأنصار:

ليتني في المؤذنين نهاري ... إنهم يبصرون ما في السطوح

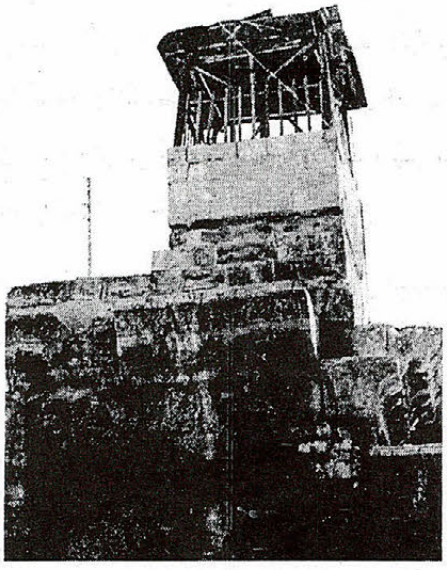
فيشيرون أو يشير إليهم ... بالهوى كل ذات دل مليح

فأمر خالد بهدم المنائر.. إلخ[٣، ج٢ ص ص ١٠٨] وخالد القسري كان عاملاً على مكة في عهد عبد الملك بن مروان وولديه الوليد وسليمان، وهذا يعني أن المآذن قد عُمِّرَتْ زمن الوليد في المسجد الحرام، وعدم وجود المآذن في يُعَدُّ أحد الأخطاء الرئيسية في ذلك التصور.

ومآذن المسجد الحرام زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٩١هـ شبيهة بهذه المئذنة التي ترجع لنفس الفترة في القرن الأول الهجري. (شكل ١١، شكل ١٢)



شكل ١١: مئذنة الجامع العُمري في بصرى الشام شبيهة بمآذن المسجد الحرام زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٩١هـ في أواخر القرن الأول الهجري.[١١]



شكل ١٢: مئذنة أحد الجوامع القديمة في حلب بسوريا التي ترجع إلى القرن الأول الهجري.[١٧]

[١٧] راجع: المنارات التي عملها عُمر بن عبد العزيز في المسجد النبوي زمن الوليد، فيما اتخذه عمر بن عبد العزيز من المحراب والشرفات والمنائر، واتخذ الحرس. (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي المجلد ٢، صفحة ٥٢٥). يمكن تشبيه هذه المآذن بمئذنة الجامع العُمري في بصرى الشام، وهي ماثلة إلى الآن من القرن الأول الهجري.

الخطأ الأول

ويستفاد أيضا مما تقدم أن المسجد الحرام على سطحه شرافات داخلية وخارجية، والشرافات هي ما يبرز من أعلى الجدران من أشكال هندسية على هيئة واحدة.[١٨] ومما يتضح في (شكل ١٠) أن سطح المسجد الحرام لا يعلوه شرافات، وهذا هو الخطأ الأول في هذا التصور.

بركة القسري

الرسم يتطلب وجود بركة القسري التي مكانها بين زمزم ومقام إبراهيم عليه السلام على الأرجح وذلك للخبر التالي: ما أورده الأزرقي،[٣، ج٢ ص ص ١٠٧] "ذكر ما عمل في المسجد من البرك والسقايات".

قال حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن حسن بن القاسم بن عقبة بن الأزرق عن أبيه، قال: كتب سليمان بن عبد الملك بن مروان[١٩] إلى خالد بن عبد الله القسري: أن أجر لي عينا (تخرج من الثقبة) من مائها العذب الزلال، حتى تظهر بين زمزم والركن الأسود، ويضاهى بها رغم ماء زمزم. قال فعمل خالد بن عبد الله القسري البركة التي بفم الثقبة، يقال لها بركة القسري،[٢٠] ويقال لها أيضا: بركة البردي ببئر ميمون، وهي قائمة إلى اليوم بأصل ثبير، فعملها بحجارة منقوشة طوال، وأحكمها وأنبط ماءها في ذلك الموضع، ثم شق لها عينا تسكب فيها من الثقبة، وبنى سد الثقبة وأحكمه، والثقبة شعب يفرع في وجه ثبير، ثم شق من هذه البركة عينا تجري إلى المسجد الحرام، فأجراها في قصب من الرصاص حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقينة من رخام، بين زمزم والركن والمقام،[٢١] فلما جرت وظهر ماؤها، أمر القسري بجزر، فنحرت بمكة وقسمت بين الناس (تشبها بعبد المطلب لما حفر زمزم) ... إلخ.

وقد أدرجت تصورا تقريبيا للمسجد الحرام زمن الوليد، آخذا الاعتبار في الملاحظات التي بصددها، والتي منها فسقية القسري المقابلة لباب الكعبة (شكل ١٣) أيضا فيما يتعلق ببئر العجول التي يفترض أن يكون مكانها في الحزورة جهة مئذنة أجياد والتي استمر وجودها حتى العصر العباسي الأول وقد سبق الحديث عنها في ملاحظاتنا على عصر قصي بن كلاب.

---

[١٨] هذا الطراز من الشرافات مأخوذ من أشكال الشرافات التي تعلو القصور التي شيدت في العصر الأموي، كقصور العقيق بالمدينة المنورة.

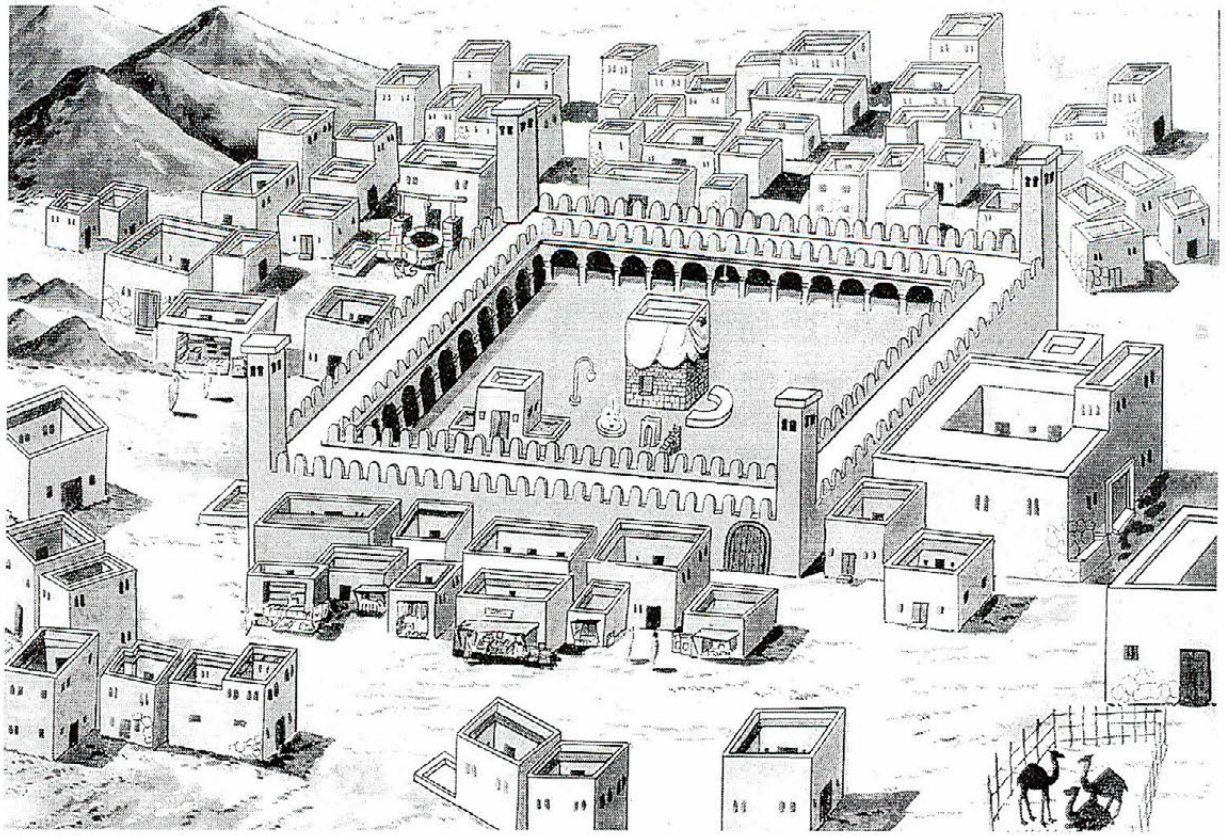
[١٩] ذكر الطبري في حوادث عام ٨٩هـ أن الوليد بن عبد الملك حفر هذه البركة، وقد كان خالد عاملا على مكة في عهد عبد الملك بن مروان وولديه الوليد وسليمان.

[٢٠] أشار عليها الأزرقي وياقوت في تعريفهما لجبل (واسط)، فقالا: تلك الناحية من بركة القسري إلى العقبة تسمى (واسط المقيم).

[٢١] أشار الطبري في حوادث عام ٨٩هـ إلى هذه البئر فقال: بئرا حفرها الوليد بن عبد الملك بالتنيتين: ثنية طوى وثنية الحجون، فكان ينقل ماؤها في حوض من آدم إلى جنب زمزم. وزاد الفاكهي فيما ذكر الأزرقي قال: فكان ذلك السرب الرصاص على حاله حتى قدم بشر الخاد مولى أمير المؤمنين في سنة ٢٥٦هـ، فعمل القبة التي إلى جانب بيت الشراب، وأخرج قصب خالد هذه التي من رصاص، التي كان عملها لسليمان بن عبد الملك، فأصلحه وجعله في سرب الفوارة التي يخرج الماء منها من حيض زمزم،لتصب في هذه البركة التي بباب المسجد. وذكر الفاسي نقلا عب البرزالي أن ابن هلال الدولة أجرى عين جبل الثقبة في مجرى العين الجوبانية وذلك سنة ٧٨٢هـ.

بركة الصفا

ذكر السباعي[٢، ص ص ١٣١] بركة الصفا وذلك في معرض كلامه عن فسقية القسري فقال: وتفرغ الفسقية في سرب من رصاص يخرج منه الماء إلى بركة كانت في السوق عند باب الصفا يتوضأ منها الناس وكان باب الصفا أقرب إلى صحن المسجد منه اليوم. (أي قبل توسعة المسجد من الجهة الجنوبية في العصر العباسي).



شكل ١٣: تصور تقريبي لعمارة الوليد بن عبد الملك للمسجد الحرام سنة (٩١هـ) حيث تبدو معالم المسجد واضحة مثل الكعبة وكسوتها البيضاء وفسقية القسري (النافورة الفوارة) المقابلة لباب الكعبة وكذلك المآذن الأموية ذات الطابع البيزنطي، وأيضا الشرفات التي تعلو أسطح المسجد الحرام، ويبدو كذلك في هذا التصور المنبر الذي أهداه معاوية سنة (٥٠هـ) أما المعالم خارج المسجد الحرام فمنها دار الندوة الملاصقة للمسجد من جهة الشمال، وأيضا بيت المال بقربها (يمين الرسم) ودار العباس بن عبد المطلب التي تقع في سوق مكة شرقي المسجد الحرام قرب المسعى، وأيضا البركة التي عند باب الصفا، وكذلك بئر العجول بالقرب من مئذنة أجياد عند دار أم هانئ. وقد قمنا بتكبير بعض المعالم بهدف إيضاحها للرائي.

الخطأ الثاني

عدم احتواء الرسم على مقام إبراهيم عليه السلام، والذي كان موجودا منذ زمن عمر بن الخطاب ﷺ وحتى يومنا هذا في مكانه شرقي الكعبة المعظمة.

الخطأ الثالث

عدم احتواء الرسم على منبر مكة أو منبر معاوية بن أبي سفيان شرقي الكعبة المعظمة الذي يفترض أن يكون موجودا في الرسم. ونورد هنا ما جاء في منبر مكة من كتاب أخبار مكة للأزرقي قال: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن عبد الرحمن بن حسن عن أبيه قال: أول من خطب بمكة على منبر، معاوية بن أبي سفيان، قدم به من الشام سنة حج في خلافته (سنة ٥٠هـ على التقريب) منبر صغير على ثلاث درجات، وكان الخلفاء والولاة قبل ذلك، يخطبون يوم الجمعة على أرجلهم قياما في وجه الكعبة وفي الحجر، وكان ذلك المنبر الذي جاء به معاوية، ربما خرب، فيعمر ولا يزاد فيه، حتى حج الرشيد هارون أمير المؤمنين في خلافته..الخ [٣، ج٢ ص ص ١٠٠]

الخطأ الرابع

الصحيح أن بئر زمزم هي داخل بناء (حماية لها من الأطفال والحجاج والعوام). وهذا البناء له باب للدخول إلى البئر، ولا يعقل أن تكون البئر مكشوفة. هذا وقد تطرقت لموضوع حجرة زمزم ضمن ملاحظاتي على عصر فجر الإسلام، ولا داعي للتكرار.

الخطأ الخامس

عدم بيان الدور الأثرية حول المسجد الحرام زمن بني أمية التي لم تدخل بعد داخل المسجد الحرام، والتي سبق الإشارة إليها في عصر فجر الإسلام، وهي دار الأرقم، دارة الندوة،[٢٢] دار أم هانئ، دار العباس، دار عمر ابن الخطاب.

كسوة الكعبة

الصحيح أن كسوة الكعبة زمن بني أمية، كان يغلب عليها الديباج (الأبيض):

قال الأزرقي: أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن أشياخه قالوا: فلما ولي عبد الملك بن مروان كان يبعث كل سنة بالديباج، فيمر به على المدينة، فينشر يوما في مسجد رسول الله ﷺ وعلى الأساطين هاهنا وهاهنا ثم يطوى ويبعث به إلى مكة، وكان يبعث بالطيب إليها وبالمجمر وإلى مسجد رسول الله ﷺ ، ثم كان أول من أخدم الكعبة يزيد بن معاوية، وهم الذين يسترون البيت، قال: حدثني جدي قال: كانت الكعبة تكسى في كل سنة كسوتين، كسوة ديباج، وكسوة قباطي[٢٣] فأما الديباج فتكساه يوم التروية، فيعلق عليها القميص ويدلى ولا يخاط، فإذا صدر الناس من منى خيط القميص وترك الإزار حتى يذهب الحجاج لئلا يخرقونه، فإذا كان العاشوراء

[٢٢] راجع أيضا ما سيتم ذكره في هذا البحث فيما يتعلق بدار الندوة ضمن عصر عهد الدولة العباسية عام (٣١٠هـ – ٩٢٣م).

[٢٣] كلا الكسوتين الديباج والقباطي لونهما أبيض.

فإذا صدر الناس من منى خيط القميص وترك الإزار حتى يذهب الحجاج لئلا يخرقونه، فإذا كان العاشوراء علق عليها الإزار فوصل بالقميص، فلا تزال هذه الكسوة بالديباج عليها حتى يوم سبع وعشرين من شهر رمضان، فتكسى القباطي للفطر..الخ.[٣، ج١ ص ص ٢٥٥]

مما سبق يتبين أن الكسوة الديباج ذات اللون الأبيض هي السائدة زمن بني أمية وليست الكسوة السوداء التي لم تعرف إلا في العصر العباسي المتأخر.

الاستدراكات على هذا العهد

عدم احتواء الجدار الشرقي للمسجد على أي باب على ما هو ظاهر في هذا العهد، إذ إنه لابد من وجود عدد من الأبواب في تلك الجهة المطلة على المسعى إذ أنها كانت عامرة بالأسواق والمساكن.

ثم إن باب السلام أو باب بني شيبة، والذي له أصل قديم[٢٤] ممكن إظهاره جيدا بطاق واحد في هذا الرسم، وذلك لأنه يقع في الجدار، الشرقي إلى جهة الشمال، وكذلك الأمر بالنسبة لباب بني هاشم أو باب علي ﷺ في نفس هذا الجدار ولكن إلى جهة الجنوب، وكذلك باب النبي ﷺ أو باب الجنائز في وسط هذا الجدار. لأن لهذه الأبواب أصل، وسنأتي للكلام عنها بإسهاب في العصرين العباسي والعثماني.

عمود الإضاءة المقابل للركن الأسود

قال السباعي: وعني المأمون ببعض الإصلاحات فأمر بإنشاء عمود طويل بحذاء الركن الغربي للكعبة وجعل عليها مصباحا كبيرا، ليسامت المصباح الذي جعله بني أمية مقابل الحجر الأسود.[٢، ص ص ١٦١]

موقع بيت المال من المسجد الحرام في العصر الأموي

وذكر السباعي أن عبد الله بن الزبير قد وسع البناء الخاص ببيت المال بجوار دار الندوة (قلت: أي أنها تقع في الجهة الشمالية من المسجد الحرام عند دار الندوة.[٢، ص ص ١٢٦]

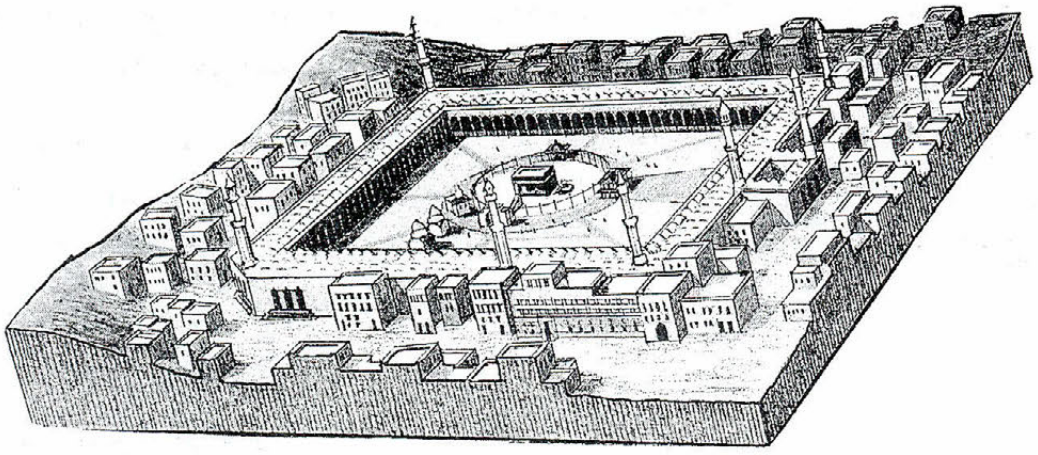
---

[٢٤] أقول: من خلال قراءتي لكتب التاريخ تبين لي حرص الخليفة الوليد بن عبد الملك على تخليد الآثار النبوية ولو بعد هدمها، فقد عمر كل من المسجد الحرام والمسجد النبوي ومسجد قباء وغيرها من المساجد في الفترة ما بين ٨٨ – ٩٢ هـ، وأبقى على أماكن الأبواب القديمة بحيث عمر الجديد منها على امتداد جهاتها الأصلية. ولهذا بقي الكثير من هذه الأبواب بأسمائها ماثلة إلى اليوم.

مكة المكرمة في زمن الدولة العباسية (٣١٠هـ - ٩٢٣م)

الكعبة وكسوتها والمقامات المحيطة بها وعقد الصفا

قبل أن ندخل في الكلام عن الأخطاء الكثيرة في هذا التصور (شكل ١٤) والذي يرجع إلى العصر العباسي، أقول أن الأفضل عمل رسمين للمسجد الحرام في العصر العباسي الثاني سنة ٣١٠هـ، والعصر الأيوبي سنة ٥٧٨هـ، وذلك لوجود بعض التغييرات في ملامح ومرافق المسجد الحرام فيما بين العصرين.



شكل ١٤: رسم يوضح مكة المكرمة زمن الدولة العباسية (٣١٠هـ - ٩٢٣م).

فالعصر العباسي الأول يبدأ من سنة ١٣٢هـ وينتهي سنة ٢٣١هـ ليبدأ بعد ذلك العصر الثاني عهد الواثق حتى سنة ٣١٠هـ ثم يبدأ العصر الفاطمي ثم الأيوبي في سنة ٥٧٠هـ تقريبا حيث زمن أبن جبير إذ انه عاصر الدعاء والثناء على صلاح الدين من المؤذنين فوق مبنى بئر زمزم. لكن الحديث هنا على الملاحظات لسنة ٣١٠هـ "أواخر العصر العباسي الثاني وسلطته على مكة" ولا يتعارض ذلك كثيرا مع وصف الرحالة للمسجد الحرام في العصور التي تلت ذلك التاريخ، وذلك لأن عمارة المهدي العباسي للمسجد الحرام سنة ١٦٨هـ هي هي حتى سنة ٩٧٩هـ مع فوارق في الترميمات والإصلاحات والزيادات البسيطة.

حجم الكعبة

كما ذكرت في مقدمة البحث أن من الأخطاء المشتركة في هذه التصورات هو إظهار الكعبة بشكل مستطيل وبأنها منخفضة الإرتفاع، وهذا غير صحيح خاصة في تصورات العهد الأموي والعباسي والعثماني، والصحيح أن الكعبة تميل إلى الشكل المكعب لا الشكل المستطيل، كما إنها مرتفعة وارتفاعها أكثر من طولها وأكثر من عرضها، وارتفاعها يصل إلى ١٥ متر، وقد أشرت إلى ذلك في المقدمة مع إيضاح مقاسات الكعبة قديما وحديثا.

كسوة الكعبة

يبدو والله أعلم أن الكعبة سنة ٣١٠هـ كانت مكسوة بكسوة حمراء اللون لا سوداء كما في زمن الدولة العباسية، وقد نقل الفاسي عن ابن عبد ربه في العقد الفريد قوله: والبيت كله مستوفي إلا من الركن الأسود فإن الأستار تفرج عنه مثل القامة ونصف، وإذا دنا وقت الموسم كسي القباطي (أسفل البيت) وهو ديباج أبيض خرساني فتكون الكسوة مادام الناس محرمين فإذا أحل الناس وذلك يوم النحر حل البيت فكسي الديباج الأحمر الخرساني وفيه دارات مكتوب فيها حمد لله وتسبيحه وتكبيره وتعظيمه، فيكون كذلك إلى العام القابل ثم تكسى أيضا على حال ما وصف، فإذا كثرت الكسوة فخشي على البيت من ثقلها خفف منها فأخذ ذلك سدنة الكعبة وهم بنو شيبة، وكان وفاة ابن عبد ربه سنة ٨٢٣هـ على ما ذكره الذهبي في البحر وغيره.

فعلم من وصف ابن عبد ربه أن ثوب الكعبة كان من الديباج الأحمر وأنه مكتوب، وأنه كان يوضع للكعبة في موسم الحج إزار أبيض مثل ما هو جاري في العصر الحاضر الذي يسمى إحرام الكعبة، ثم في يوم النحر تكسى الكعبة كسوتها الجديدة.

مما سبق يتبين لنا أن كسوة الكعبة في أوائل القرن الرابع الهجري كان لونها حمراء لا سوداء في زمن العصر العباسي، وذلك على اعتبار أن صفة كسوة الكعبة التي كان لونها الديباج الحمر هي امتداد في العصر العباسي وحتى زمن ابن عبد ربه سنة ٣٢٨هـ.

أما في العصر الأيوبي وعلى افتراض عمل رسم آخر لمكة كما قلنا سنة ٥٧٨هـ مثلا، فإن لون الكسوة وشكلها يختلف عما كانت عليه في العصر العباسي الثاني.

فقد وصف ابن جبير الكسوة في رحلته سنة ٥٧٨هـ بقوله: فلما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور (أي ذو الحجة) اشتغل الشيبيون بإسبالها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسنا، في أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب في الصفح الموجه إلى المقام الكريم حيث الباب المكرم، وهو وجهها المبارك، بعد البسملة: ﴿إن أول بيت وضع للناس﴾ الآية، وفي سائر الصفحات أسم الخليفة والدعاء له، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة أيضا. فكملت كسوتها،وشمرت أذيالها الكريمة صونا لها من أيدي الأعاجم وشدة اجتذابها وقوة تهافتها عليها وانكبابها فلا للناظرين منها أجمل منظر، كأنها عروس جليت في السندس الأخضر، أمتع الله بالنظر إليها كل مشتاق إلى لقائها حريص على المثول بفنائها بمنة.

أقول: مما سبق وعلى افتراض عمل تصور آخر للمسجد الحرام في العصر الأيوبي فإنه ينبغي رسم كسوة الكعبة وتلوينها كما وصفها ابن جبير.

المقامات الأربعة حول الكعبة في زمن الدولة العباسية (٣١٠هـ - ٩٢٣م)

قديما كان يوجد بالمسجد الحرام أربع مقامات، ينسب كل واحد منها إلى أحد الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب، وهي: المقام الشافعي والمقام الحنفي والمقام الحنبلي والمقام المالكي، يقول الشيخ حسين باسلامة في كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام" رحمة الله تعالى: أنه بحث كثيرا في الكتب، عن اسم أول من أحدث هذه المقامات، وعن سنة حدوثها، فلم يعثر على شيء، والذي ظهر له بعد البحث الطويل أنها حدثت بين القرنين الرابع والخامس. وهو ما يؤكد أن إحداث المقامات المذكورة بدعة، وقد قيض الله الملك عبد العزيز آل سعود فأزالها.

وقال: وذلك لأن ابن عبد ربه الأندلسي، حينما وصف المسجد الحرام في كتابه العقد الفريد: ذكر كل ما احتواه من أروقة وأبواب وسقاية العباس، وغيرها مما أزيل من المسجد الحرام، ولم يذكر المقامات الأربعة، وقد توفي ابن عبد ربه سنة ٣٢٨هـ فدل ذلك على عدم وجودها في ذلك العصر.

أقول: ولم يذكر التلمساني المقامات عند وصفه للمسجد الحرام في الفترة ما بين سنة ٣٥٨هـ إلى سنة ٣٨٤هـ في كتابه وصف مكة والمدينة وبيت المقدس.[١٨] بل حتى ناصر خسرو العلوي الفارسي في سنة ٤٢٢هـ لم يذكر المقامات في سفرنامة فدل على عدم وجودها في زمنه، فبعد وصفه للمسجد الحرام قال: فجملة المباني التي بساحة المسجد الحرام، عدا الكعبة المعظمة، شرفها الله تعالى ثلاثة، هي بيت زمزم وسقاية الحاج وخزانة البيت. ولم يذكر المقاملت.

أقول: ومما سبق يتبين عدم صحة رسم المقامات حول الكعبة في زمن الدولة العباسية والذي يرجع لسنة ٣١٠هـ. أما في حالة عمل تصور آخر للمسجد الحرام في العصر الأيوبي (القرن السادس الهجري) فإنه ممكن إظهار المقامات، ولكن بهيئة مختلفة عما هي في الرسم. فقد ذكر ابن جبير الأندلسي في رحلته، المقامات الأربعة، ووصفها وكان ذلك في السنة التي حج فيها، وهي سنة ٥٧٨هـ حيث قال: كان المقام الشافعي خلف مقام إبراهيم عليه السلام، والمقام المالكي مقابلا للركن اليماني، وكان المقام الحنفي مقابلا لميزاب الكعبة الشريفة، بينما وضع المقام الحنبلي أمام الحجر الأسود، وهذا ما جاء بخصوص تحديد مواضع المقامات.[١٩، ص ص ٧٨]

صفة المقامات

وصف ابن جبير المقامات فذكر أن المقام الشافعي حطيم يتكون من خشبتين موصول بينهما بأذرع خشبية تشبه السلم تقابلهما خشبتان على نفس الصفة، وقد عقدت هذه الخشاب على أرجل من الجص وفي أعلى الخشب أخرى معترضة بها خطاطيف حديدية تعلق عليها القناديل، ويوجد اسفل المقام محراب صغير وشمعدان عن يمينه وآخر عن يساره. ثم وصف ابن جبير باقي المقامات بصفات مماثلة. وأخيرا أشير إلى المقامات المرسومة والتي تعبر على ما كانت عليه في العهد العثماني لا العهد العباسي (أو العهد الأيوبي إن صح التعبير).

عقد درج الصفا

في هذا العهد سنة ٣١٠هـ ينبغي إظهار عقد الصفا (جنوبي مئذنة باب علي) أي على يسار الرسم، لأن الصفا تُقابل جهة أبي قُبيس والذي يظهر أن الصفا في العصر العباسي الثاني عبارة عن مرتفع بأدراج، وهذه الأدراج تقضي إلى حُجرة كبيرة بها أحجار الصفا وهذه الحجرة تتفتح بعقد كبير على المسعى، وكذلك الحال بالنسبة للمروة.

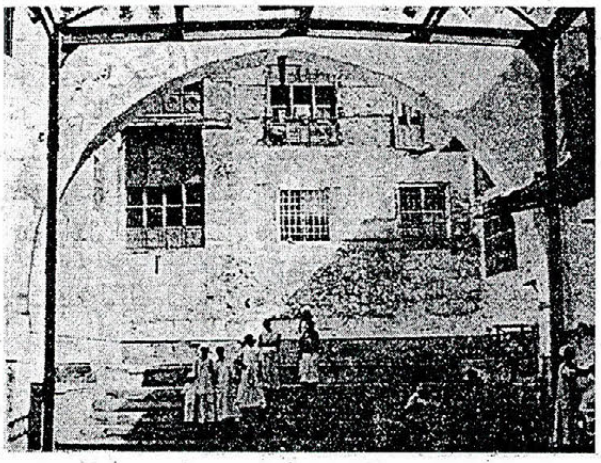
وظل الأمر كذلك حتى العصر المملوكي، إذ تغير الوضع بالنسبة للصفا، حيث أنه يُطل على المسعى بثلاثة عقود بدل عقد واحد كبير، وسنأتي للكلام عن ذلك في "زمن العصر العثماني".

وإليك أخي القارئ هذا المبحث من كتاب التاريخ القويم لمحمد طاهر الكردي (شكل ١٥):[٦، ج٥ ص ص ٣٤٣]

بناء العقدين بالصفا والمروة: جاء في تاريخ الغازي ما نصه: وذكر المحب الطبري أن العقد الذي بالمروة جُعل علماً لحد المروة، ثم قال: فينبغي للساعي أن يمر تحته ويرقى على البناء المرتفع.

يقول الكردي رحمه الله: والعقد الذي بالمروة الآن جُدد في آخر سنة إحدى وثمانمائة أو في التي بعدها بعد سقوطه، وعمارته هذه من قبل الملك الظاهر برقوق، واسمه مكتوب بسبب هذه العمارة في أعلى بناء العقد، وفي الصفا أيضاً، وما أظن أن عقد الصفا بني، وإنما أظن أنه نوَّر وأُصلح.

وكان بالمروة خمس عشرة درجة، على ما ذكر الأزرقي، وليس بها الآن غير واحدة، ومن تحت هذا العقد إلى أول درجة الدكة، التي بالمروة داخل العقد، سبعة أذرع، ومن تحت العقد إلى الجدر، الذي يستدبره مستقبل القبلة، ثمانية عشر ذِراعاً وثُلُثا ذِراع، كل ذلك بذراع الحديد.[٩]



شكل ١٥: عقد المروة المطابق لشكل عقد الصفا قديماً في العصر العباسي.[٦]

يقول الكردي:[٦] لم نقف على من بنى العقد الذي بالصفا والعقد الذي بالمروة والظاهر، والله تعالى أعلم، أن العقدين، بالصفا والمروة، بُنِيَا لأول مرة بعد بناء عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عامل مكة من قبل

أبي جعفر المنصور، درج الصفا ودرج المروة، وليس كما يظن الشيخ حسين باسلامة، رحمه الله تعالى، مؤلف "تاريخ عمارة المسجد الحرام" إن الذي بناهما هو باني الدرج عبد الصمد بن علي المذكور قبل سنة مائة وثمان وخمسين من الهجرة، فلو كان المر كذلك لذكرهما الأزرقي، في تاريخهن عندما ذكر بناء عبد الصمد بن علي درج الصفا والمروة.

وسبب بناء العقدين، بعد عهد أبي جعفر المنصور، هو معرفة حد الصفا وحد المروة، فلا يتكلف الساعي الرقي لما بعدهما من الدرج. والظاهر، والله أعلم، أن العقدين بنيا لأول مرة قبل القرن الثالث (أي: في عمارة الخليفة المهدي العباسي ١٦٧هـ) فإن العقدين كانا موجودين في زمن ابن بطوطة كما صرح بذلك في رحلته وقد ولد ابن بطوطة سنة ثلاث وسبعمائة.

والمصطبة، أي الدكة الواسعة المبنية على درج الصفا والمروة، فطول المصطبة كما ذكره صاحب مرآة الحرمين أربعة أمتار في عرض مترين، والمصطبة بنيت لحكمة عظيمة وهي: إن عدد درج الصفا اثنتا عشرة درجة، وعدد الدرج في المروة خمس عشرة درجة، وذلك فيما سبق من الزمان، فلو لم تبن المصطبة الواسعة لتعذر على مرتقي درج الصفا أن يدير نفسه، وهو في أعلى اثنتي عشرة درجة، ليترل عنها ثانيا قاصدا المروة مثلا، خصوصا عند زحمة الحج والحجاج، فوجود المصطبة هو لاستراحة الضعفاء ولدورانهم للرجوع إلى الصفا أو المروة وللدعاء فرحم الله من نظر إلى مصلحة الناس.

وهنا نذكر ما جاء في "شفاء الغرام" نقلا عن المحب الطبري في شرح الأصل، عن الأبنية التي على الصفا والمروة، وعن العقد الذي عليهما، فقد قال فيه ما يأتي: وقد بني على الصفا والمروة أبنية حتى سترتهما، بحيث لا يظهر منهما شيء غير يسير في الصفا. قال: والمروة أيضا في وجهها عقد كبير مشرف، والظاهر أنه جعل علما لحد المروة، وإلا كان وضعه ذلك عبثا، وقد تواتر كونه حدا بنقل الخلف عن السلف، وتطابق الناسخون عليه، فينبغي للساعي أن يمر تحته ويرقى على البناء المرتفع عن الأرض.

والبناء المرتفع الذي أشار إليه المحب كهيئة الدكة وله درجة، وذكر الأزرقي والبكري في ذرع المروة، ما يخالف حالهما اليوم "أما الأزرقي" فإنه قال في الترجمة، التي ترجم عليها، بقوله: ذكر ذرع ما بين الركن السود إلى الصفا وذرع ما بين الصفا والمروة وعلى المروة خمس عشرة درجة.

وذكر في هذه الترجمة درج الصفا، ونص كلامه على الصفا اثنتا عشر درجة من حجارة. "وذكر البكري" في درج المروة مثل ما ذكر الأزرقي. "وذكر ابن جبير" أن درج المروة خمس درجات. "وذكر النووي" أن فيها درجتين والذي فيها الآن واحدة (أي على زمنه). والعقد الذي بالمروة جدد بعد سقوطه في آخر سنة إحدى وثمانمائة أو في التي بعدها، وعمرته هذه من نقل الملك الظاهر برقوق، واسمه مكتوب بسبب هذه العمارة في أعلى هذا العقد.

قال: وفى الصفا أيضا، وما أظن أن عقد الصفا بني وإنما أظن أنه نور وأصلح وسبب ترددي في ذلك أني رحلت من مكة في آخر سنة إحدى وثمانمائة رحلتي الثانية إلى الديار المصرية والشامية، ومن تحت هذا العقد (إلى أول درجة الدكة التي بالمروة داخل العقد) سبعة أذرع، ومن تحت العقد الذي بالمروة إلى الذي يستدبره مستقبل القبلة ثمانية ذراعا وثلثا ذراع، كل ذلك بذراع اليد، واتساع هذا العقد ستة عشر ذراعا بذراع الحديد المصري.

يستفاد مما تقدم أن الصفا كانت تطل على المسعى بعقد كبير وهذا العقد ممكن إظهاره على يسار الصورة في العصر العباسي الثاني سنة ٣١٠هـ وقد أشرت إلى ذلك أنفا في البداية وذلك على اعتبار أن كل من الصفا والمروة مكانين متماثلين وكذلك للأدلة الآنفة الذكر.

مآذن المسجد الحرام وأشكالها في زمن الدولة العباسية (٣١٠هـ - ٩٢٣م)

أشكال المآذن في زمن الدولة العباسية (شكل ١٤)، **أولا** : عددها غير صحيح، **ثانيا**: أشكالها غير صحيحة وغير واضحة. فالمئذنة الموجودة شمالي المسجد الحرام والمطلة على المسعى لم تبن إلا في العصر العثماني سنة ٩٧٣هـ، وتسمى بمئذنة السلطان سليمان، الذي بني بقربها سبيلا. وسأتطرق إلى هذه المئذنة في زمن الدولة العثمانية، أقول: فدل هذا الكلام على عدم وجود هذه المئذنة في زمن الدولة العباسية. وكذلك الأمر بالنسبة لمئذنة السلطان قايتباي، التي عمرها سنة ٨٨٠ هـ, وهي شرقي المسجد الحرام عند مدارسه الأربع التي بناها قرب المسعى.

أقول: كلا المئذنتين ليس لهما وجود في العهد العباسي فدل ذلك على وجود خطأ بين في هذا التصور الذي ينسب إلى العصر العباسي سنة ٣١٠هـ.

وأما عددها حقيقة فإنها خمس مآذن، في كل ركن من أركان المسجد توجد مئذنة والخامسة على باب زيادة دار الندوة، إلا أن الأزرقي ذكر أن بالمسجد أربع مآذن، ولم يذكر الخامسة وذلك لأنها حدثت بعده في زيادة دار الندوة سنة ٢٨٤هـ.

منارات المسجد الحرام حتى العصر العباسي الثاني سنة ٣١٠هـ

١- **منارة باب العمرة**: أنشأها أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس، حينما زاد في المسجد الحرام من الجانبين الشمالي والغربي، وفرغ منه سنة ١٤٠هـ أربعين ومائة ثم سقطت سنة ٥٥١هـ، فعمرها الجواد الأصفهاني.

٢- **منارة باب السلام**: أنشأها أمير المؤمنين محمد المهدي سنة ١٦٧هـ ثم هدمت سنة ٨١٦هـ، في زمن الناصر فرج بن برقوق الجركسي، ثم عمرت في عصره.

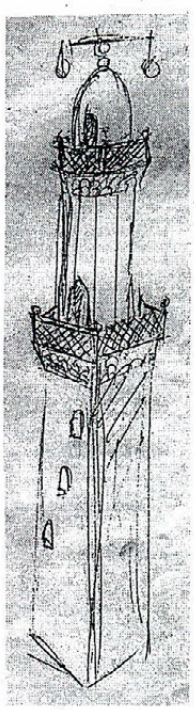
٣- **منارة باب علي**: أنشأها أيضاً أمير المؤمنين محمد المهدي، وأُعيد بناؤها في عهد السلطان سليمان خان سنة ٩٧٠هـ.

٤- **منارة باب الوداع**: (قديماً يُسمى هذا الباب بباب الحزورة) وهذه المئذنة أنشأها أيضاً أمير المؤمنين المهدي العباسي سنة ١٦٧هـ على التقريب، ثم سقطت زمن الملك الأشرف شعبان بن السلطان حسين سلطان مصر سنة ٧٧١هـ وعُمِّرَتْ في نفس السنة. وتُسمى أيضاً بمئذنة أجياد لإشرافها على ناحية أجياد.

٥- **منارة باب الزيادة**: أنشأها المعتضد العباسي، بعد أن زاد في توسعة المسجد الحرام، أمر بإدخال دار الندوة إليه، كما أمر أن تبنى عند هذه الزيادة منارة، وذلك في حدود ٢٨٤هـ أربع وثمانين ومائتين للهجرة ثم سقطت هذه المنارة وبناها الملك الأشرف برسباي ملك مصر سنة ٨٣٨هـ.

وأود أن أذكر أن المآذن في هذا التصور غير واضحة المعالم، فلم ينقل لنا أحد من المؤرخين ولا من الرحالة عن أشكال مآذن المسجد الحرام في العصر العباسي إلا ابن جبير سنة ٥٧٨هـ، وقلده ابن بطوطة، فلعلها التي يصفها ابن جبير شبيهة أو بعضها شبيه فيما قبل سنة ٣١٠هـ، وإليك خبر ما قال:[١٩]

وللحرم سبع صوامع (شكل ١٦): أربع في الأربعة جوانب، وواحدة في دار الندوة، وأُخرى على باب الصفا، وهي أصغرها، وهي علم لباب الصفا، وليس يُصعد إليها لضيقها، وعلى باب إبراهيم صومعة.



شكل ١٦: وصف الرحالة ابن جبير لأحد مآذن المسجد الحرام في العصر الأيوبي.[١٩]

أقول: وعلى اعتبار وصف ابن جبير لمكان مئذنتي باب إبراهيم وباب الصفا التين م تكونا موجودتين زمن الأزرقي ومن بعده، فإنه ينبغي إظهار هاتين المئذنتين الإضافيتين في الرسم الافتراضي لمكة في العصر الأيوبي.

قال: وللصوامع أيضا أشكال بديعة، وذلك أنها ارتفعت بمقدار النصف، مركنة من الأربعة جوانب رائعة النقش عجيبة الوضع، قد أحاط بها شباك من الخشب الغريب الصنعة، وارتفع عن الشباك عمود في الهواء كأنه مخروط مختم كله بالآجر تختيما يتداخل بعضه على بعض بصنعة تستميل الأبصار حسنا. وفي أعلى ذلك العمود الفحل، وقد استدار به أيضا شباك آخر من الخشب على تلك الصنعة بعينها. وهي متميزة الأشكال كلها لا يشبه بعضها بعضا. لكنها على هذا المثال المذكور، من كون نصفها الأول مركنا ونصفها الأعلى عمودا لا ركن له.[١٩، ص ص ٦٩]

شرافات المسجد الحرام

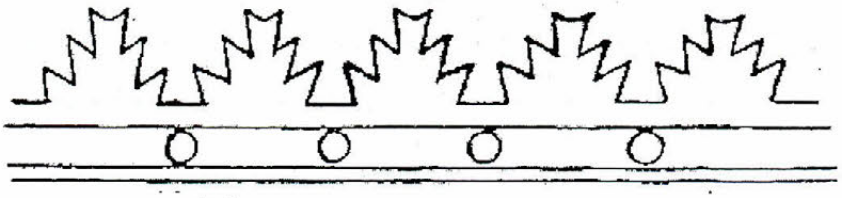
ومن الاستدراكات على هذا التصور أن المسجد الحرام لا يعلوه شرافات، والصحيح أنه كان يعلوه شرافات من عمارة المهدي العباسي سنة ١٦٧هـ، وإليك خبرها:

قال أبو الوليد الأزرقي:[٢] وعدد الشرافات التي على جدارات المسجد من خارجه مائتا شرافة واثنتان وسبعون شرافة ونصف، منها في الجدر الذي يلي المسعى ثلاث وسبعون شرافة ، ومنها في الجدر الذي يلي الوادي مائة وتسع عشرة (أي جهة وادي إبراهيم عليه السلام، جنوبي المسجد الحرام)، ومنها في الجدر الذي يلي بني جمح خمس وسبعون، ومنها في الجدر الذي يلي دار الندوة خمس شرافات ونصف، وأما الشراف التي في بطن المسجد (المطلة على الكعبة) فيقول الأزرقي: وفي شق المسجد الشرقي الذي فيه المسعى أحد وثلاثون طاقا فوقها مائة شرفة مخصصة، وفي الشق الذي يلي باب بني شيبة الصغير ودار الندوة ستة وأربعون طاقا فوقها مائة وخمسون شرفة مخصصة، وفي الشق الغربي تسعة وعشرون طاقا فوقها أربع وتسعون شرافة، وبين مخرج النبي ﷺ من الصفا وبين الركن الذي فيه منارة المسعى تسعة عشر طاقا، فهذا ما في بطن المسجد من الشرف البيض، وأما خارج المسجد فبعض الشرف قائم وبعضه داخل في الدور.[٢، ج ٢ ص ص ٩٦]

وقد وصف الرحالة ابن جبير شرافات المسجد الحرام وصفا دقيقا سنة ٥٧٨هـ قال: وفي أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة، وهو مشرف كله بشرفات مبسوطة مركنة، في كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان كأنها أيضا شرفات أخر صغار، والركن الأسفل منها متصل بالركن الذي يليه من الشرفة الأخرى، وتحت كل صلة منها ثقب مستدير في دور الشبر أي (قطرها ٤٠سم) منفوذ يخترقه الهواء يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر فتلوح كأنها أقمار مستديرة، يتصل ذلك بالجوانب الأربعة كلها، كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ثم أحدثت فيها هذه التقاطيع والتراكين فجاءت عجيبة المنظر والشكل.

قال: وفي النصف من كل جانب من الجوانب الأربعة المذكورة شقة من الجص معترضة بين الشرفات مخرمة طولها نحو الثلاثين شبرا تقديرا، تقابل كل شقة منها صفحا من صفحات الكعبة المقدسة قد علت على الشرفات كالتاج.[١٩، ص ص ٦٨-٦٩]

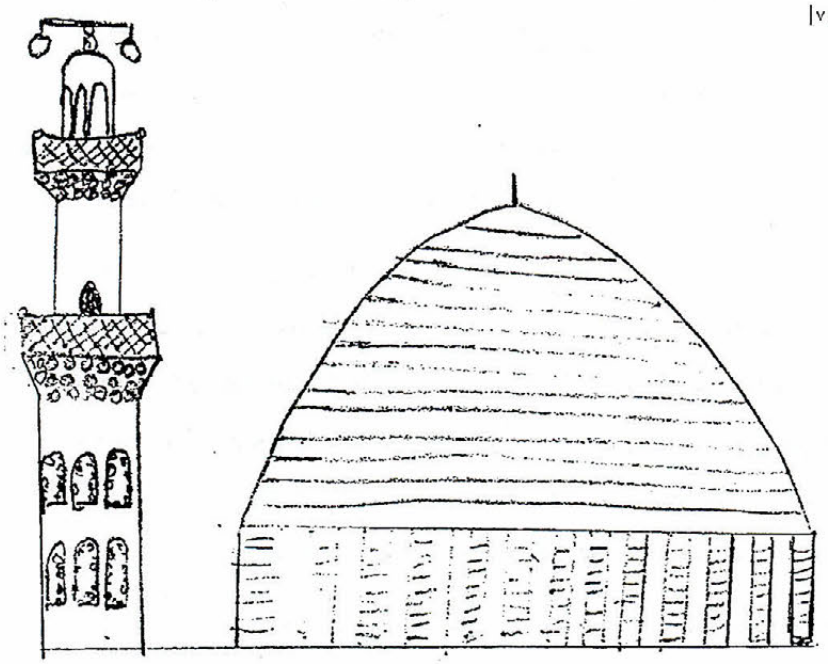
يتضح لنا مما سبق أن المسجد الحرام في العصر العباسي كان يعلوه الشرافات، وهذا ما ليس موجوداً في الرسم، وهنا رسماً لطرة من الشرافات حسب وصف ابن جبير (شكل ١٧).



شكل ١٧: الشرّافات حسب تصور ابن جُبير.[٢٠]

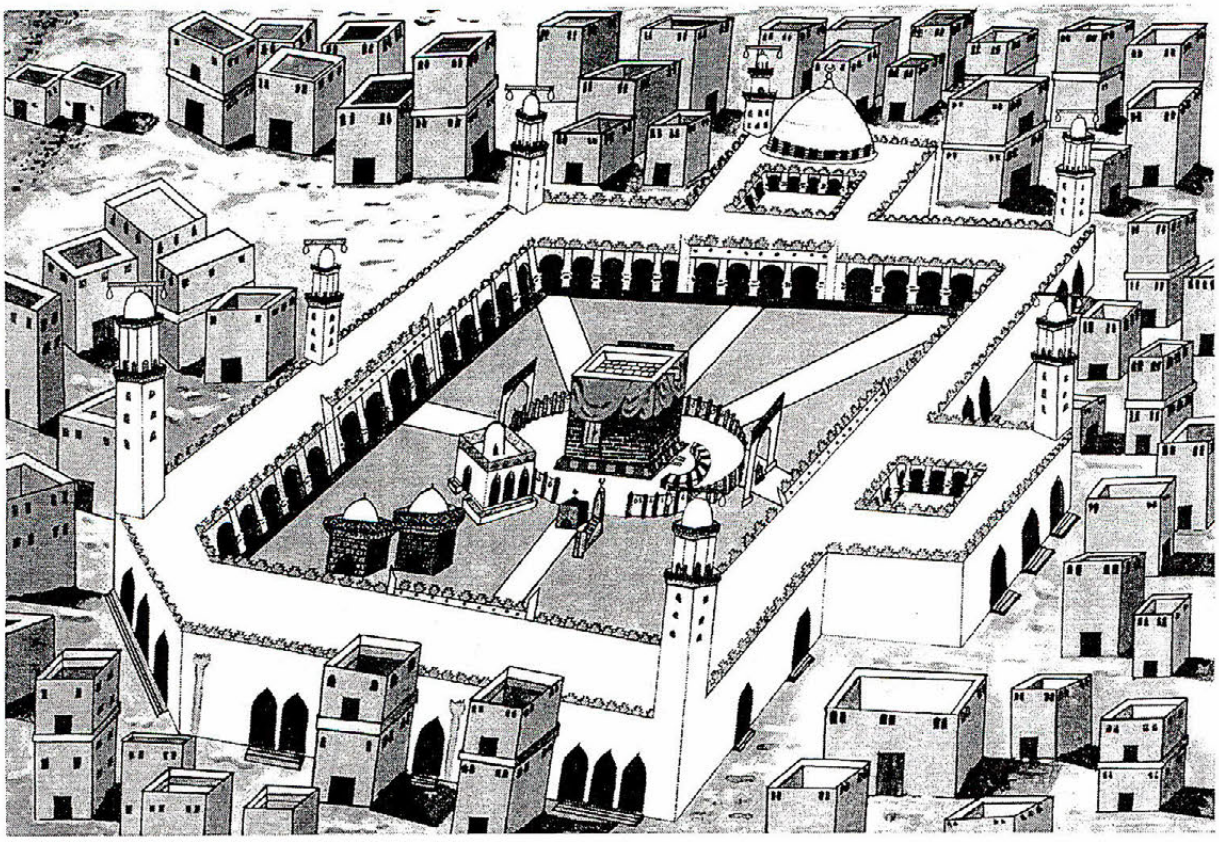
وصف ابن جُبَير لقُبة ومئذنة باب إبراهيم

قال: وباب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، هو في زاوية كبيرة متسعة، فيها دار المكناسي الفقيه الذي كان إمام المالكية في الحرم، رحمه الله تعالى، وفيها أيضاً غرفة هي خزانة للكتب المحبسة على المالكية في الحرم، والزاوية المذكورة مُتَّصلة بالبلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب وخارجه عنه. وبازاء الباب المذكور عن يمين الداخل عليه صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة، فيها تخاريم في الجص، مستطيلة الشكل كأنها محاريب، قد حفت بها قرنصة غريبة الصنعة. وعلى الباب قبة عظيمة بائنة العلو يقرب من الصومعة ارتفاعها، قد ضُمِّن داخلها غرائب من الصنعة الجصية والتخاريم القرنصية يعجز عنها الوصف، وظاهرها أيضاً تقاطيع في الجص مفتّح ما بين كُلّ رجل ورجل (شكل ١٨).[١٩، ص ص ٧٤]



شكل ١٨: تصوّر لوصف ابن جُبير لقُبة ومئذنة باب إبراهيم في القرن السادس الهجري.[١٩]

قُلت في بداية الكلام عن زمن الدولة العباسية، أن من الأفضل عمل رسمين للمسجد الحرام في العصر العباسي الثاني، والعصر الأيوبي زمن ابن جبير، وذلك لوجود بعض التغييرات في ملامح ومرافق المسجد الحرام فيما بين العصرين (شكل ١٩)، كقبة ومئذنة باب إبراهيم التي وصفها ابن جبير وصفاً دقيقاً في العصر الأيوبي.



شكل ١٩: تصوّر تقريبي للمسجد الحرام في بداية العصر الأيوبي حسب وصف الرحالة ابن جُبَير الأندلسي سنة ٥٧٨هـ أو سنة ٥٦٩هـ وتُرَى الكعبة المعظمة بكسوتها الخضراء وحِجْر إسماعيل ملبساً بالرخام الأبيض والأسود والمقامات المحيطة بالكعبة وكذلك مبنى بئر زمزم المقابل للحجر الأسود وسقاية العباس وقبة الزيت (القبتين المتجاورتين) وقد رُسمتْ المآذن السبعة التي أصغرها مئذنة باب الصفا إضافة للقبة الكبيرة التي تعلو باب إبراهيم الخياط، وكذلك الشرافات، والعقود التي تعلوها الشرافات المرتفعة المقابلة للكعبة التي تميزها عن غيرها وغير ذلك من معالم أُخرى كلها حسب وصف ابن جبير للمسجد الحرام في ذلك العصر، ويُلاحظ في الرسم كذلك العمودان الأخضران الملتصقان بالجدار الشرقي للمسجد الحرام اللذان يهرول بينهما الساعي بين الصفا والمروة (أسفل الرسم)، والعمارة الموضحة في هذا التصور هي عمارة الخليفة المهدي العباسي (١٦٨هـ العصر العباسي الأول) مع زيادتي دار الندوة وباب إبراهيم (العصر العباسي الثاني).

مكة المكرمة في زمن زيادة المقتدر بالله العباسي سنة ٣٠٦هـ

صحيح أن الرسم (شكل ١٤) يشمل زيادة دار الندوة التي زادها المعتضد بالله العباسي سنة ٢٨١هـ شمالي المسجد الحرام (التي تظهر على يمين الرسم) لكن من الخطاء الرئيسية في هذا الرسم أو هذا العهد في عدم احتوائه على زيادة المقتدر بالله في الجهة الغربية من المسجد الحرام (أي أعلى الرسم) والتي تُسَمَّى بزيادة باب إبراهيم،

وكانت هذه الزيادة قد تمت سنة ٣٠٦هـ، وزمن الدولة العباسية مؤرخ بسنة ٣١٠هـ وهذا يتطلب وجود هذا الزيادة في هذا الرسم، وإليك خبرها:

زيادة المقتدر بالله (زيادة باب إبراهيم)

وأما زيادة باب إبراهيم: فقال في الإعلام: ومن جملة محاسن المقتدر بالله أنه زاد في المسجد الحرام زيادة باب إبراهيم وليس المراد به الخليل عليه السلام بل كان إبراهيم هذا خياطا يجلس عند هذا الباب عمر دهرا فعرف به وكان قبل هذه الزيادة بابا متصل بأروقة المسجد الحرام بقرب باب الحزورة ويقال به باب الخياطين وبقربه باب ثان يقال له باب بني جمح، وخارج هذين البابين ساحة بين دارين لزبيدة أم الأمين بنيتا في سنة ثمان ومائتين وما بقي لتلك الدار أثر الآن.

قال: والذي يظهر أن داري زبيدة كانت إحداهما في الجانب الشامي في مكان رباط الخوزي الآن وكانت الأخرى تقابلها من الجانب اليماني من تلك الزيادة وهي رباط (رامشت) الذي يعرف الآن برباط ناظر الخاص.

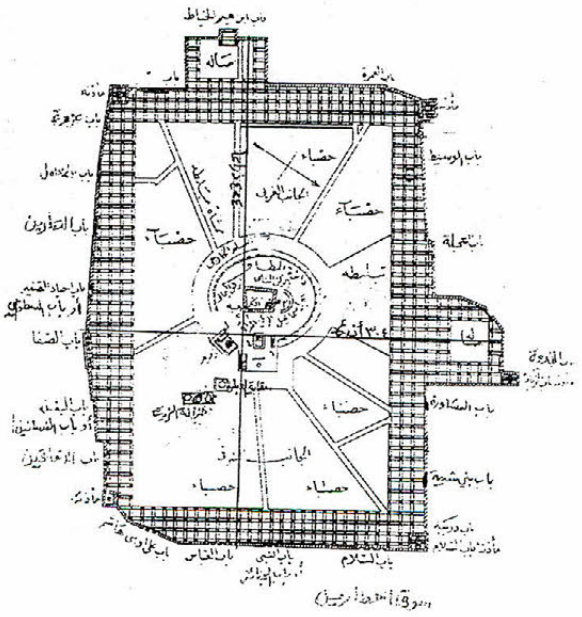
قال: في تحصيل المرام قلت: أما الذي من جهة الجانب الشامي فيقال له الآن رباط سليمان ويسكنه أهل اليمن، وأما الآخر فما بقي لذلك الرباط أثر.

قال القطب: فأدخلت هذه الساحة التي بين الدارين في المسجد الحرام وأبطل البابان يعني باب الخياطين وباب بني جمح حيث دخلا في المسجد الحرام، وجعل عوض البابين باب كبير هو المسمى باب إبراهيم غربي هذه الزيادة.

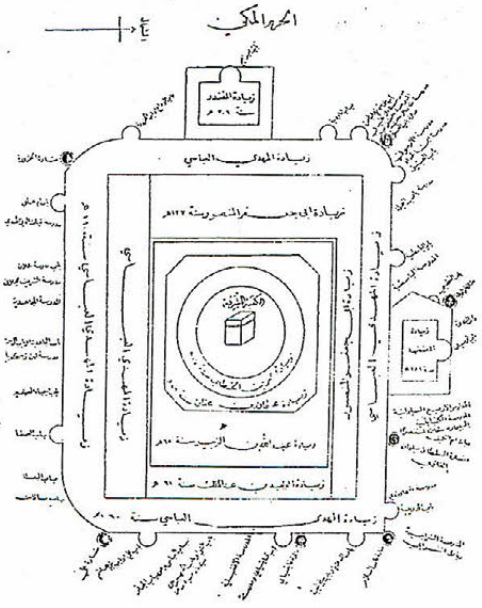
قال الحافظ نجم الدين عمرو بن فهد في حوادث سنة ست وثلاثمائة في كتابه "إتحاف الورى بأخبار أم القرى": وفيها زاد قاضي مكة يومئذ، محمد بن موسى في الجانب الغربي قطعة عن باب الخياطين وباب بني جمح وهي السوح التي كانت بين داري زبيدة أم الأمين.

وعمل ذلك مسجدا أوصله بالمسجد الكبير، وطول هذه الزيادة من الأساطين التي في وزان جدر المسجد الكبير إلى العتبة التي عليها باب إبراهيم وسبعة وخمسون ذراعا إلا سدس ذراع، وعرض هذه الزيادة من جانبها الشامي إلى جانبها اليماني وذلك من جدار رباط الخوزي إلى جدار رباط رامشت اثنان وخمسون ذراعا وربع ذراع ومن هذه الزيادة في جانبها الشرقي المتصل بالمسجد الكبير صفان من الرواق على أساطين منحوتة من الحجارة وكذلك في جانبها الشمالي و لم يكن في جانبها الغربي رواق وفي جانبها ليماني سبيل ماء وسط رواقيه وكانت لهذه الزيادة منارة ذكرها التقي الفاسي في شفاء الغرام.

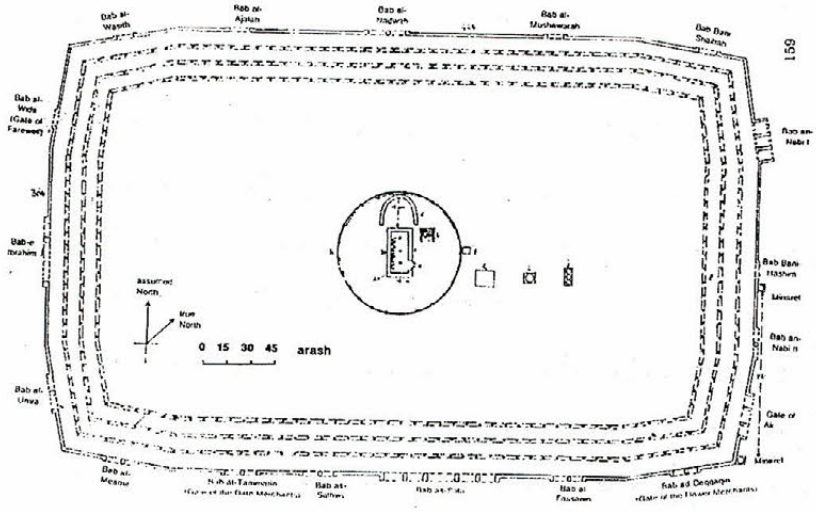
قال الكردي: أما المنارة فلا أدري من بناها ولا متى هدمت وأما السبيل فكان موجودا إلى ثلاث وثمانين وتسعمائة فهدم عند وصول العمارة السلطانية إليه وأعيد بناؤه سبيلا كما كان وهذه الزيادة الثانية وقعت في أيام المقتدر العباسي (شكل ٢٠ - ٢٢).



شكل ٢٠: وصف ناصر خسرو للمسجد الحرام سنة ٤٢٢هـ ويشتمل على عمارة الخليفة المهدي العباسي سنة ١٦٨هـ مع زيادتي المعتضد بالله لدار الندوة سنة ٢٨١هـ وزيادة المقتدر بالله لباب إبراهيم سنة ٣٠٦هـ. لاحظ استطالة المسجد الحرام.



شكل ٢١: توسعات المسجد الحرام حتى سنة ٣٠٦هـ.



شكل ٢٢: مسقط أفقي للمسجد الحرام في العصر العباسي حسب وصف الرحالة ناصر خسرو العلوي الفارسي سنة ٤٢٢هـ، لكن بدون الزيادتين.[٢٠] لاحظ استطالة المسجد الحرام.

قبة الشراب أو مخزن الزيت أو قبة الفراشين

ترى في هذا العهد أن قبة الفراشين مبنية على هيئة قبة سقاية العباس وهما القبتان البيضاويتان المتجاورتان في الرسم. وهذا ليس بصحيح، إذ أن قبة الفراشين أو قبة الزيت أو الكنيسة (وكلها ذات معنى واحد) كانت عبارة

عن مبنى مستطيل يعلوه ثلاث قباب وليس مبنى مربعا يعلوه قبة واحدة وكبيرة كما في الرسم على هيئة سقاية العباس، وإليك إيضاح ذلك: فبعد أن وصف الأزرقي مبنى زمزم وسقاية العباس .. قال: فلم يزل هذا بناء الصفة، صفة زمزم، وهو بيت الشراب حتى هدمه عمر بن فرج الرخجي، في سنة تسع وعشرين ومائتين (٢٢٩هـ) وبناه، فبنى أسفله بحجارة بيض منقوشة، مداخلة على عمل الجنحة الرومية وبنى أعلاه بأجر, وألبسه رخاما، وجعل بينه كواء عليها شباك من حديد، وأبواب، وجعلها مكنسة (أي: أعلاها بدون جملوني)، وفوق الكنيسة ثلاث قباب صغار، وألبس ذلك كله بالفسيفساء، وجعل في بطنها حوضا كبيرا من ساج في بطن الحوض وحوض من آدم ينبذ فيه الشراب للحاج أيام الموسم.[٢١، ج٢ ص ص ١٠٦]

ويصف ابن عبد ربه مبنى زمزم والسقايات الملحقة به وذلك بعد وصف الأزرقي بنصف قرن بقوله: وزمزم بشرقي الركن الأسود بينهما مثل الثلاثين ذراعا، وهي بئر واسعة تنورها من حجر مطوق أعلاه بالخشب، وسقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل منها عمودا رخام متلاصقان، قد سد ما بين كل ركنين منها بشرجب خشب ورد إلى الباب من جهة المشرق وحول القبو كله رف مثل البرطلة (أي: مثل المظلة), وقال: وبشرقي زمزم بيت مقدر سقفه قبو مزخرف بالفسيفساء أيضا مقفل عليه، وشرقي هذا البيت بيت كبير مربع له ثلاثة أقباء وفي كل وجه منه باب.[٢١، ج٦ ص ص ٢٥٨]

أما التلمساني في الفترة ما بين سنة ٣٥٨هـ إلى سنة ٣٨٤هـ فقد وصف سقاية العباس على أنها سقاية زبيدة (زوج هارون الرشيد والتي تنسب إليها عين زبيدة المشهورة) ووصف قبة الزيت بصفة مماثلة لوصف الأزرقي وابن عبد ربه قال: وبإزاء زمزم قبة مقببة على أرجل من خشب مغلوق بينها بالشراجيب، يرجع إلى باب صغير من جانب دار الندوة، والقبة ثمانون ذراعا، قاعها معمول بالجص، فيها خواب يسقى منها الماء من بعد المغرب إلى العتمة، سقفها معمول بالفسيفساء في أعلاها زج فيه شبه صورة طائر من نحاس، تديرها الريح، بينها وبين قبة زمزم خمسة وعشرون ذراعا، قال: وقبة الشراب بيت مربع أعلاه مكنس، عليه ثلاث قبيبات معمولة بالفسيفساء، لها خمسة عشر بابا ثلاثة كبار، واثني عشر صغار، مشرجية بشراجب الحديد، وهو اليوم خزانة للشمع، بينها وبين قبة زبيدة ثلاثة أشبار، يكاد ركناها أن يلتصقا، ليس في المسجد غير ذلك إلا أثر قبة اليهودية، وهو دور من رخام أسود بإزاء قبة الشراب ارتفاعه من الأرض قدر الشبر.

أما الرحالة ناصر خسرو فقد وصف خزانة الزيت بوصف مماثل وبسيط وذلك سنة ٤٢٢هـ قال: وأمام البئر (أي زمزم) ناحية المشرق، بناء آخر مربع عليه قبة، يسمى سقاية الحاج، وضع به أزيار يشرب منها الحجاج، وبعد هذا البناء، بناء آخر مستطيل، عليه ثلاث قباب، يسمى خزانة الزيت، به الشمع والزيت والقناديل.

قال: فجملة المباني التي بساحة المسجد الحرام، عدا الكعبة المعظمة، شرفها الله تعالى، ثلاثة هي: بيت زمزم وسقاية الحاج وخزانة الزيت.[٢٢، ص ص ١٣٣]

يتضح مما سبق أن قبة الزيت أو قبة الفراشين لم تكن كما في العصر العباسي سنة ٣١٠هـ على أنها مبنى مماثل لسقاية العباس بأن يعلوها قبة، إذ الصحيح أنها بناء مستطيل يعلوه ثلاث قباب وفي نفس المكان للأدلة التي ذكرناها آنفا (شكل ٢٠، شكل ٢٢).

قباب أسطح المسجد الحرام

الذي يظهر في التصور من أن المسجد الحرام مسقف بقباب فإن ذلك غير صحيح في العصر العباسي سنة ٣١٠هـ وذلك لأن عمارة الخليفة المهدي العباسي للمسجد الحرام سنة ١٦٨هـ لم تكن بالقباب، وإنما تم ذلك بكل سقفين مستويين داخلي وخارجي، ولم تظهر الأسقف المقببة إلا في عمارة السلطان سليم وخليفته السلطان مراد في الفترة من ٩٧٩هـ إلى ٩٨٤هـ.

وإليك أخي القارئ ما ذكره الكردي[٦، ج٥ ص ص ٢٩٤] فيما يتعلق بنفس الموضوع. قال: ولقد بقيت عمارة "محمد المهدي" على حالها من سنة ١٦٤هـ إلى سنة ٩٨٠هـ أي دامت عمارته ثمانمائة وست عشرة سنة.

ففي هذه السنة تجدد عمارة المسجد الحرام بالقباب، على هذه الصفة الموجودة في وقتنا الحاضر، أي دامت عمارة "محمد المهدي" ثمانمائة وست عشرة سنة تماما، وبطبيعة الحال، لابد أنه حصل في عمارته ما يوجب إصلاحه وتقويته، كما حصل في العمارة الجديدة، التي بالقباب، إصلاحات أيضا، وهذه سنة الله في الكون.

قال: وكان تجديد بناء المسجد الحرام بالقباب في زمن العلامة المؤرخ قطب الدين الحنفي صاحب كتاب "إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام" المتوفى سنة ٩٨٠هـ رحمه الله تعالى. قال:

واعلم: إن السبب في تجديد عمارة المسجد الحرام، وبنائه بالقباب، كما هو في وقتنا الحاضر، هو: أن الرواق الشرقي مال إلى جهة الكعبة المشرفة، بحيث برزت رؤوس خشب السقف الثاني عن محلها، من جدار المسجد الحرام بنحو ذراع، والمراد بالرواق الشرقي هو من بعد باب علي إلى قرب باب السلام جهة المسعى.

وقد مال الرواق الشرقي إلى صحن المسجد أي إلى جهة الحصوة ميلا بينا واضحا حتى خشوا سقوطه، فرفعوا الأمر إلى خليفة المسلمين إذ ذاك وهو السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان، فأمر، رحمه الله تعالى، بتجديد بناء المسجد الحرام جميعه، بناء محكما متقنا، وأن يكون سطحه قبابا قوية، بدلا من السقفين الخشبيين فشرعوا في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٩٨٠هـ تسعمائة وثمانين من الهجرة. وقد استمر أربع سنوات، فتم على أكمل وجه. وهذه العمارة لا زالت باقية بقوتها ومتانتها إلى يومنا هذا.

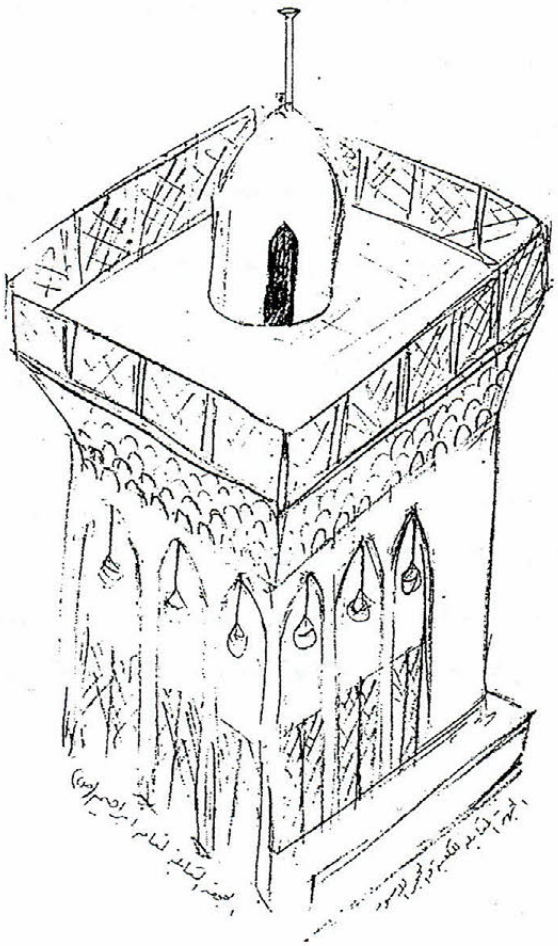
وصف الرحالة ابن جبير لقبة زمزم ومئذنة باب علي وأبواب المسجد الشرقية

أولا: لقد بينت أنفا أن الأفضل عمل تصورين للمسجد الحرام في العصرين العباسي الثاني، والعصر الأيوبي وذلك لتغير ملامح المسجد وما حوله فيما بين العصرين. **وثانيا:** لأن ابن جبير قد ترك لنا تراثا هائلا لوصف مكة في زمنه.

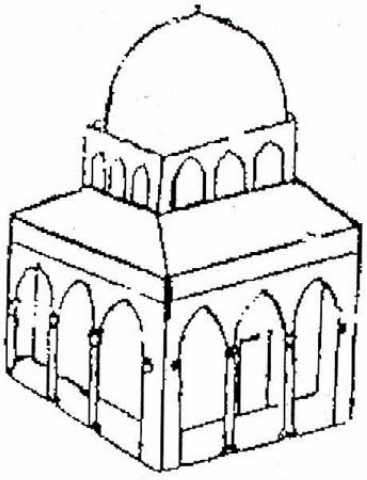
قبة زمزم

من المباني التي يمكن وصفها رسما هي قبة زمزم، وإليك أخي القارئ وصف ابن جبير لمبنى قبة زمزم في العصر الأيوبي سنة ٥٦٩هـ، قال:[١٩]

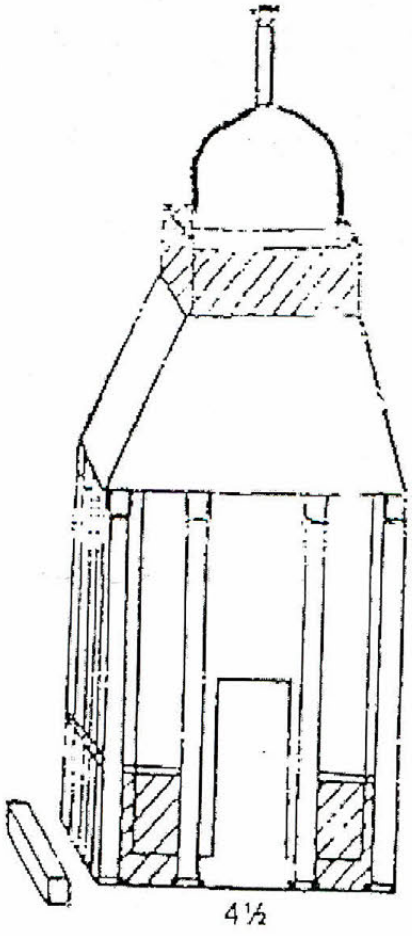
وفي النصف الأعلى من قبة زمزم والقبة العباسية التي تسمى السقاية والقبة التي تليها منحرفة عنها يسيرا المنسوبة، صنعة من قرنصة الخشب عجيبة، قد تأنق الصانع فيها وأحدق بأعلاها شباكا مشرجب من الخشب رائق الخلل والتأريج وداخل شباك قبة زمزم سطح وقد قام في وسطه شبه هيكل الصومعة. وفي ذلك السطح يؤذن الزمزمي، وقد انخرط من ذلك الهيكل عمود من الجص واستقر في رأسه صفحة حديد تتخذ مشعلا في شهر رمضان المعظم (شكل ٢٣، ٢٤، ٢٥).



شكل ٢٣: رسم مبسط لبئر زمزم حسب وصف الرحالة ابن جبير سنة ٥٧٨هـ (تصور تقريبي) رسم: سليمان مصطفى.



شكل ٢٤: وصف ابن عبد ربه لمبنى بئر زمزم.



شكل ٢٥: تصور لوصف ابن جبير لقبة بئر زمزم سنة ٥٧٩هـ من كتاب الاستبصار قبل سنة ٥٨٧هـ..

قال: وفي الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبة سلاسل فيها قناديل من زجاج معلقة توقد كل ليلة، وفي الصفح الذي عن يمينه كذلك، وهو الناظر إلى الشمال، وفي كل جوانب منها ثلاثة شراجيب مقومة كأنها أبواب قد قامت على سوار من الزجاج صغار لم ير أبدع منها صنعة، منها ما هو مفتول فتل السوار ولا سيما الجانب الذي يقابل الحجر الأسود من قبة زمزم، فإن سواريه في نهاية من إتقان الصنعة، قد أدير بكل سارية منها رؤوس ثلاثة أو أربعة، وتحت ما بين كل رأس ورأس .. وأحدثت فيه صنائع من النقش عجيبة المنظر، وربما فتل بعضها عن الصفة السواري.

وهذا الجانب الذي يقابل الحجر الأسود من القبة المذكورة تصل به مصطبة من الرخام دائرة بالقبة يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع لأنه أشرف مواضع الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة، لأن الحجر الأسود أمامك والباب الكريم مع البيت قبالتك والمقام عن يمينك وباب الصفا عن يسارك وبئر زمزم وراء ظهرك، وناهيك بهذا!. قال: وينطبق على كل شرجب من تلك الشراجيب على أعمدة حديد قد تركب بعضها على بعض كأنها شراجيب أخرى.[١٩، ص ص ٦٩-٧٠] أقول: ومع أن وصف ابن جبير لقبة زمزم غير واضح وغير تام، إلا إنه ممكن إعطاء شكل تقريبي لهذا المبنى في ذلك العصر.

وبمناسبة الكلام عن وصف مبنى بئر زمزم تعليقا على التصورات التي نحن بصددها، فإن ذلك لا يمنع من التعرض لنقد تصورات أخرى لمبنى زمزم والتي وردت في كتاب (HAJJ IN FOCUS).

نرى الاختلاف البين فيما نقله ابن جبير الآنف الذكر وما نقله ابن عبد ربه وبين هذه الرسومات، فأقول: أين سطح المبنى والذي يرقى إليه المؤذن ويجتمع الناس فيه في بعض المناسبات، وأين المقرنصات والشبابيك المشرجبة في سطح المبنى.

مئذنة باب علي

ومن الأخطاء البينة في هذا التصور: أن مئذنة باب علي تتوسط باب علي ﷺ (أي المئذنة التي على يسار الرسم). فالصحيح أن مئذنة باب علي ﷺ لا تعترض أو تتوسط باب علي، إذ أنها تقع في الركن الجنوبي الشرقي من المسجد الحرام، وباب علي بطاقاته الثلاث يقع على يمين المئذنة من الخارج حسب ما ذكره المؤرخون والرحالة، وحسب المخطوطات والمخططات المتعلقة بالمسجد الحرام قديما (لا داعي لبيانها بالتفصيل). وإذا كان يقصد بالطاقات الثلاث القريبة من المئذنة المذكورة بأنها باب العباس فإن هذا أيضا غير صحيح، لأن هذا الباب حقيقة يقع إلى جهة الشمال قليلا من الجدار المذكور وذلك حسب المصادر التي ذكرتها آنفا.

باب السلام

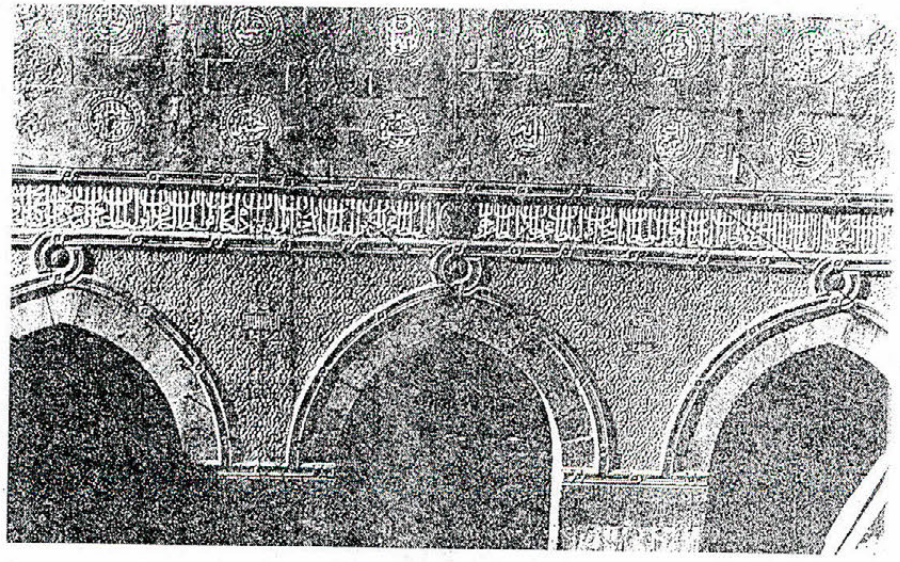
كما ينبغي إلغاء المبنى المقابل أو الملاصق لباب السلام لإظهار باب السلام في هذا الرسم لأمرين اثنين، **أولا**: أن المباني في العصر العباسي المبكر لم تكن كثيرة ومرتفعة خلافا لما هي عليه في العصر العثماني، **ثانيا**: على اعتبار أن باب السلام من الأبواب الرئيسية للمسجد، فلذلك يستبعد أن تكون المباني ملاصقة له أو مقاربة له جدا كما في هذا التصور، أما في العصر العثماني، فالصحيح أنه توجد بعض المباني المقاربة لباب السلام بحيث تغطيه فلا يظهر هذا الباب إلا بشكل جزئي في هذا الرسم، طبقا للمخطوطات التي اطلعت عليها. وستأتي لبيان هذا الأمر في عهد الدولة العثمانية.

ما ذكره تقي الدين الفاسي فيما يتعلق بأبواب المسجد الحرام من الجهة الشرقية المطلة على المسعى.[٢٥] قال رحمه الله تعالى: للمسجد الحرام الآن (أي على زمنه) تسعة عشر بابا - تفتح على ثمانية وثلاثين طاقا منها في الجانب الشرقي أربعة أبواب:

الأول: ثلاث طاقات وهو الباب المعروف باب بني شيبة ويقال له أيضا باب السلام (شكل ٢٦).

---

[٢٥] توفي الفاسي رحمه الله بمكة سنة ٨٣٢هـ ومن مؤلفاته (الجواهر السنية في السيرة النبوية).



شكل ٢٦: صورة لباب السلام بطاقاته الثلاث. [٦، ج٥ ص ص٣١٣]

هذا وسنأتي للموضوع المتعلق بباب بني شيبة الأخر والذي كان بداخل المسجد الحرام الواقع خلف مقام إبراهيم عليه السلام.

الثاني: طاقان ويعرف بباب الجنائز لأن الجنائز يخرج بها منه في الغالب وذكر الأزرقي إنه باب النبي ﷺ الذي كان يخرج منه ويدخل إلى مترله دار خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في زقاق العطارين وذكر أنه كان طاقا واحدا ولم أر متى جعل له طاقان إلا أنه كان على ذلك من سنة تسع وسبعين وخمسمائة لأن ابن جبير ذكره هكذا في أخبار رحلته وكانت في سنة ٥٦٩هـ.

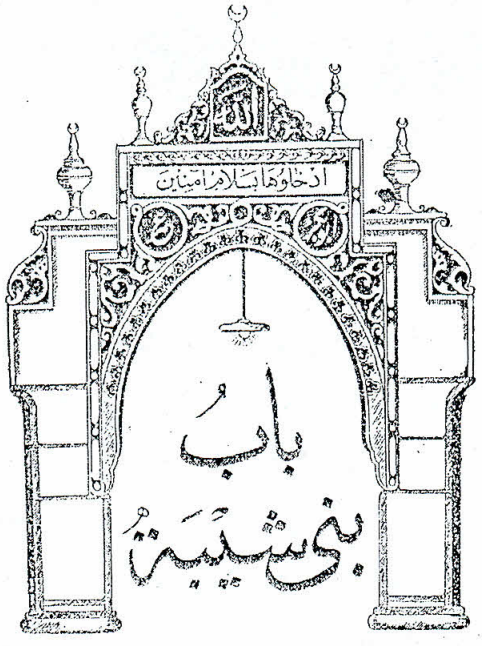
الباب الثالث: ثلاث طاقات ويعرف بباب العباس بن عبد المطلب ﷺ لأنه يقابل داره بالمسعى وعرفه بذلك أيضا الأزرقي وسماه ابن الحاج في منسكه باب الجنائز لأنه قال لما ذكر صفة المسعى، ثم نزل عن الصفا ماشيا حتى يحاذي العلم الأخضر وهو أول بطن الوادي يسعى سعيا في الهرولة حتى يجاوز العلم الأخضر الذي عند باب الجنائز، وهو آخر بطن الوادي فيمشي على هينته حتى يأتي المروة. قال: ولعل تسميته له بباب الجنائز، كان يصلى عليها فيه كما ذكره الفاكهي.[٩]

الباب الرابع: ثلاث طاقات أيضا ويعرف باب علي ﷺ وقد عرفه بذلك ابن جبير لأنه قال: وباب علي ﷺ، وعرفه الأزرقي باب بني هاشم (على يسار التصور عند المئذنة).

وأقول: وقد بقي هذا الباب على هيئته في العمارة العثمانية وسنأتي للكلام عن هذا الباب في العصر العثماني.

باب بني شيبة (باب السلام داخل المسجد الحرام)

من خلال مطالعتي للمؤلفات حول مكة المكرمة وكذلك من خلال اطلاعي على كتب الرحلات التي تصف مكة والمسجد الحرام أقول: لم يتطرق أحد من المؤرخين ولا من الرحالة في العصر العباسي لذكر أو وصف باب بني شيبة أو باب السلام الذي بداخل المسجد الحرام والذي يظهر على هيئة عقد كبير خلف مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بل و لم يتعرض أحد لتاريخ عمارة هذا الباب إطلاقا، وهذا يعني أنه من الخطأ إظهار هذا الباب في العصر العباسي الثاني، وأعتقد أن هذا الباب قد أحدث (كبناء) في العهد العثماني،كما هو في المخطوطات العثمانية، فلا يصح نسبة وجوده في المسجد الحرام (شكل ٢٧).



شكل ٢٧: رسم لباب بني شيبة.[٢٣، ص ص ١١٤]

بخلاف باب السلام أو باب بني شيبة الذي أجمع المؤرخون والرحالة على وصفه وذكره في كتبهم وهذا كان يقع بجدار المسجد الشرقي جهة الشمال وله ثلاث طاقات، يقول عباس كرارة،[٢٣] باب بني شيبة هو الباب الواقع خلف مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الذي هو عقد على شكل نصف دائري مطوي بشكل بديع في غاية من الجمال وحسن البناء على عمودين مربعين بنيا بحجر الرخام وقد زين بنقوش بديعة وكتب عليه من الجهة الشرقية بماء الذهب تحت الهلال: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ وكتب فوق العقد ﴿رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا﴾، وكتب عليه من الجهة الغربية المقابلة لمقام إبراهيم عليه الصلاة

والسلام وللكعبة المعظمة (الله جل جلاله) ثم ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ ثم (محمد عليه السلام).

قال: وهكذا ظل الباب من قديم العهد حيث كان في العصر الجاهلي والعصر النبوي، وقد ورد في كثير من كتب الحديث والسير والتاريخ أن النبي ﷺ كان يدخل منه إلى المسجد ويخرج منه.

وكان بجوار هذا الباب دار شيبة بن عثمان الحجبي سادن الكعبة المعظمة، وقد كانت هذه الدار ضمن الدور التي اشتراها الخليفة محمد المهدي العباسي من آل شيبة بن عثمان وهدمها وأدخلها في توسعة المسجد الحرام حين عمره عام ١٦٤هـ. [٢٣، ص ص ١١٤]

قبة دار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمكة

ومن المباني التي ينبغي إظهارها في عمل تصور آخر للمسجد الحرام في العصر الأيوبي هي القبة التي بين الصفا والمروة, وإليك خبرها: ذكر الإمام الأزرقي في كتابه أخبار مكة، عند الكلام على رباع بن عدي بن كعب حيث يقول:[٣]

وكانت للخطاب ابن نفيل دار صارت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كانت بين دار مخرجة بن نوفل، التي صارت لعيسى بن علي، وبين دار الوليد بن عتبة، بين الصفا والمروة، وكان لها وجهان: وجه على ما بين الصفا والمروة، ووجه على فج بين الدارين، فهدمها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في خلافته وجعلها رحبة ومناخا للحاج، تصدق بها على المسلمين، وقد بقيت منها حوانيت فيها أصحاب الأدم.

قال: فسمعت جدي أحمد بن محمد، يذكر أن تلك الحوانيت كانت أيضا رحبة من هذه الرحبة، ثم كانت مقاعد يكون فيها ما يبيعون في مقاعدهم، وفي المقاعد صناديق يكون فيها متاعهم بالليل، وكانت الصناديق بلصق الجدار، ثم صارت تلك المقاعد خياما بالجريد والسعف، فلبثت تلك الخيام ما شاء الله، وجعلوا يبنونها باللبن التي وكسار الآجر، حتى صارت بيوتا صغارا يكرونها من أصحاب المقاعد في الموسم، من أصحاب الأدم بالدنانير الكثيرة، فجاءهم قوم، من ولد عمر بن الخطاب من المدينة فخاصموا أولئك القوم فيها إلى قاض من قضاة مكة، فقضى بالعمريين، وأعطى أصحاب المقاعد قيمة بعض ما بنوا، فصارت مواقيت تكرى من أصحاب الأدم، وهي في أيدي ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى اليوم.[٣]

قال ابن جبير في رحلته سنة ٥٦٩هـ: ومن مشاهدها (أي مكة) قبة بين الصفا والمروة تنسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي وسطها بئر، يقال أنه كان يجلس فيها للحكم رضي الله عنه، والصحيح في هذه القبة أنها قبة حفيدة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وبإزاء داره المنسوبة إليه وفيها كان يجلس للحكم أيام توليه مكة، كذلك حكى لنا أحد أشياخنا

الموثقين .. ويقال أن البئر كانت في القديم فيها، ولا بئر فيها الآن (أي على زمنه) لأنا دخلناها فألفيناها مسطحة، وهي حفيلة الصنعة.[١٩، ص ص ٨٢-٨٣]

قلت الصحيح أنها دار عمر ابن الخطاب لانطباق وصف الأزرقي لمكانها على المكان الذي وصفه ابن جبير. والله أعلم.

من سياق ما تقدم، وعلى افتراض عمل تصور آخر لمكة في العصر العباسي الأيوبي، فإنه ينبغي إظهار قبة دار عمر ابن الخطاب بين الصفا والمروة وتقع ضبطا في الركن الأسفل واليمن للتصور. (منتصف المسعى تقريبا).

قبة دار الأرقام بن أبي الأرقم

كما قلنا أنه ينبغي عمل رسمين لمكة في العصر العباسي الأول والثاني، فمن المباني التي ينبغي إظهارها في تصور آخر لمكة في العصر العباسي الثاني هي دار الأرقم التي سبق الكلام عنها في زمن النبوة أو زمن قريش أو زمن فجر الإسلام، والتي سنتكلم عنها لاحقا في عهد الدولة العثمانية، وإليك أخي القارئ وصف الرحالة ابن جبير لدار الأرقم سنة ٥٦٩هـ، قال: وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة المذكور دخلنا دار الخيزران[٢٦] (أي دار الأرقم) التي كان منها منشأ الإسلام، وهي بإزاء الصفا ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها كان مسكن بلال ﷺ، ويدخلها إليها على حلق كبير شبيه الفندق قد أحدقت به البيوت للكراء من الحاج، والدار المكرمة دار صغيرة بجدها الداخل إلى الحلق المذكور عن يساره، وهي مجددة البناء، أنفق في بنائها جمال الدين المذكور أثره الكريم في هذا المكتوب، نحو الألف دينار[٢٧] نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح[٢٨] وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه إلى قبة كبيرة بديعة البناء، فيها مقعد النبي ﷺ والصغرة التي كان إليها مستند، وعن يمينه موضع أبي بكر الصديق، وعن يمين أبي بكر موضع علي بن أبي طالب، والصغرة التي كان إليها مستنده هي

---

[٢٦] الخيزران: هي أم موسى الهادي وأم هارون الرشيد، أعتقها أمير المومنين محمد المهدي سنة ١٥٩هـ وتزوجها بعد أن ولدت له الهادي والرشيد. حجت مرتين إحداهما سنة ١٧١هـ ويحتمل أنها حجت أكثر من ذلك، وهي التي اشترت في سنة ١٧١هـ دار الأرقم كما اشترت الدور الملاصقة لدار الأرقم وأصلحتها وبنتها فسميت هذه الدار "بدار الخيزران" نسبة إليها رحمها الله تعالى وغفر لنا ولها، كما اشترت البيت الذي ولد فيه النبي ﷺ فجعلته مسجدا يصلى فيه.

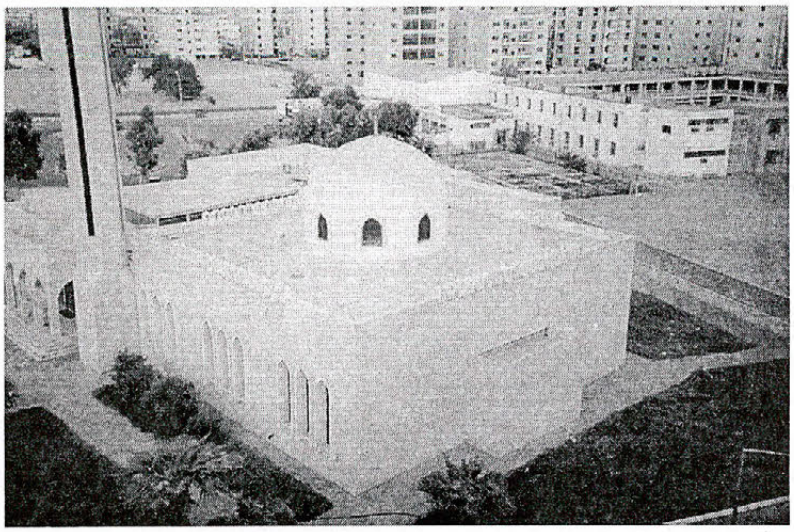
[٢٧] وهو محمد بن علي ابن منصور، أبو جعفر الأصفهاني الملقب بجمال الدين الموصلي، وزير صاحب الموصل كان رجلا صالحا وجوادا وله أعمال كثيرة في مكة والمدينة، توفي سنة ٥٥٨هـ، ونقل من الموصل إلى المدينة المنورة ودفن بها، أنظر ترجمته في البداية والنهاية لأبن كثير، رحلة ابن جبير، التاريخ القويم لمكة بيت الله الكريم للكردي.

[٢٨] بعض الأعمال المعمارية للجواد الأصفهاني الموصلي في مكة والمدينة: بناء سور على المدينة المنورة سنة ٥٤٠هـ، جدد بناء مسجد قباء سنة ٥٥٥هـ، عمر مسجد الخيف بمنى سنة ٥٥٥هـ، عمر مسجد نمرة بعرفة سنة ٥٥٩هـ تم بناؤه بعد وفاته، أمر بصنع باب الكعبة سنة ٥٥٠هـ وصفح الباب بالنقرة المذهبة وكتب عليه اسم المقتفي لأمر الله (الخليفة العباسي) وجعل الباب المقدم تابوتا له ليدفن فيه، قام بتغريم الحجرة الشريفة سنة ٥٥٠هـ على التقريب، قام ببناء وتجديد بعض المآذن في المسجد الحرام، عمر دار الأرقم بن أبي الرقم بمكة التي عند الصفا، أجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم وعمر الدرج الذي في الجبل.

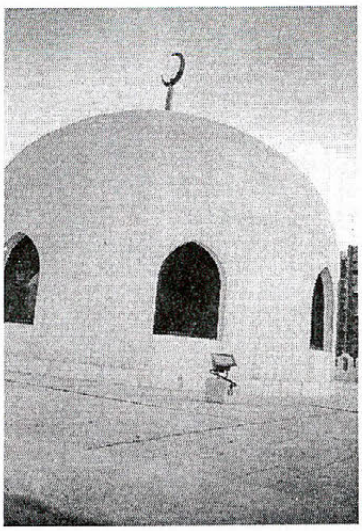
داخلة في الجدار كشبه المحراب، وفي هذه الدار كان إسلام عمر بن الخطاب ومنها ظهر الإسلام على يديه، وأعزه الله به. [١٩، ص ص ١٢٩-١٣٠]

أقول: يتضح مما تقدم أن دار الأرقم التي تقع على يمين النازل من الصفا كان عليها قبة كبيرة زمن ابن جبير، وهذه القبة قد عُمِّرَتْ سنة ٥٥٥هـ على التقريب (وذلك لأن معظم الأعمال المعمارية للجواد الأصفهاني قد تمت في تلك وعلى السنة أو قبلها أو بعدها بقليل وذلك لأنه توفي سنة ٥٥٨هـ) فإنه ينبغي إظهار قبة دار الأرقم بقرب الصفا قبالة مئذنة باب علي إلى جهة الجنوب (أي على يسار أسفل الرسم، الركن السفلي الأيسر للتصور).

وإليك أخي القارئ صور لبعض القباب من عصرنا الحاضر والمشابهة لما كان موجود بالمسجد الحرام آن ذاك (شكل ٢٨، شكل ٢٩).



شكل ٢٨: صورة من أعلى لأحد المساجد الحديثة في الكويت والذي يحوي قبة على نمط القباب الأربعة التي كانت بالمسجد الحرام.



شكل ٢٩: صورة لقبة مشابهة للقباب القديمة التي كانت بالمسجد الحرام.

مكة المكرمة في عهد الدولة العثمانية سنة ١٢١٥هـ - ١٨٠٠م

قبل أن ندخل في الكلام عن الأخطاء في تصور هذا العهد (والذي يرجع إلى العصر العثماني) (شكل ١٤)، أود أن أُبين أن العهد العثماني ليس عنَّا ببَعيد بحيث يصعب عمل تصور للمسجد الحرام، كما أنه لم يُوسَّع المسجد الحرام في العصر الحاضر إلا مُنْذُ ٤٠ سنة على التقريب زمن الملك سعود والملك فيصل يرحمهما الله، أي أن كثيراً من المعاصرين قد أدرك العمارة العثمانية والتي تمت في الفترة من سنة ٩٧٩هـ وحتى سنة ٩٨٤هـ زمن السلطان سليم وخليفته السلطان مراد الثالث، كذلك فإن أجزاء كبيرة من العمارة العثمانية ماثلة إلى اليوم، حيث أنه روعي في العمارة السعودية الإبقاء على جانب من العمارة العثمانية التي تتميز بالأسقف المقببّة والأسقف ذات

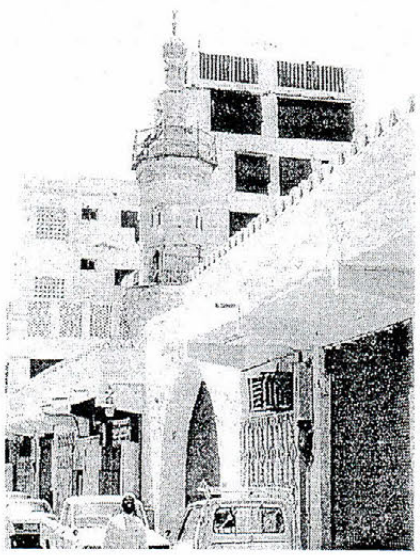
الطواجن.[٢٩] ونكمل ذلك بأنه في عصرنا الحاضر توجد كثير من المخطوطات المصورة للمسجد الحرام في العصر العثماني، بل توجد كثير من الصور الفوتوغرافية للمسجد قبل أعمال الهدم والتوسعة، ومع تيسر ذلك فأنا أستغرب من وجود أخطاء كثيرة في هذا التصور، والذي لا يحتاج إلى جهد كبير لعمله مع تيسر الصور الفوتوغرافية القديمة الموجودة اليوم في كثير من الكتب التي تتعلق بتاريخ مكة وتاريخ المسجد الحرام، وأنا أحتفظ بكثير منها.

كما يمكن عمل تصور آخر لمكة والمسجد الحرام في العصر المملوكي الذي عاصره المؤرخ الفاسي، ويمكن أن يبين هذا التصور المسجد الحرام بمآذنه الخمس (بدون مئذنة السلطان قايتباي) وكذلك قصر السلطان الغوري الذي بناه فوق باب إبراهيم سنة ٨١٧هـ وأيضاً المدارس وغير ذلك.

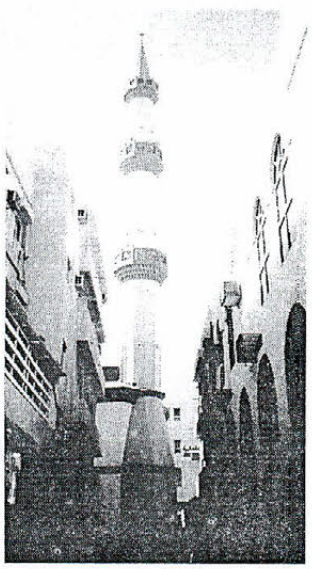
مئذنة السلطان قايتباي

يُلاحظ عدم احتواء الرسم على مئذنة السلطان قايتباي المملوكي، وكانت هذه المئذنة تطُل على المسعى، وهي خارج بناء المسجد قديماً، ولكنها قريبة منه، وإليك خبرها:

يقول قطب الدين الحنفي، ما نصه:[٢٤، ص ص ١٤١] وسادسها: منارة مدرسة السلطان قايتباي بناها على عقد باب مدرسته في غاية الصناعة بثلاثة أدوار وبُنيَ نظيرها على عقد باب مسجد الخيف بمنى، وفُرِغَ من بنائها بعد سنة ٨٨٠هـ، (شكل ٣٠ إلى شكل ٣٣) لمآذن شبيهة بمئذنة السلطان قايتباي.

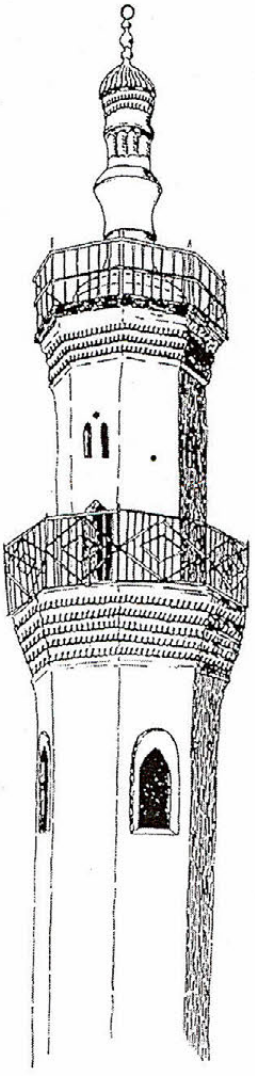


شكل ٣٠: صورة لمئذنة مسجد الشافعي بجدة.[٢٥]

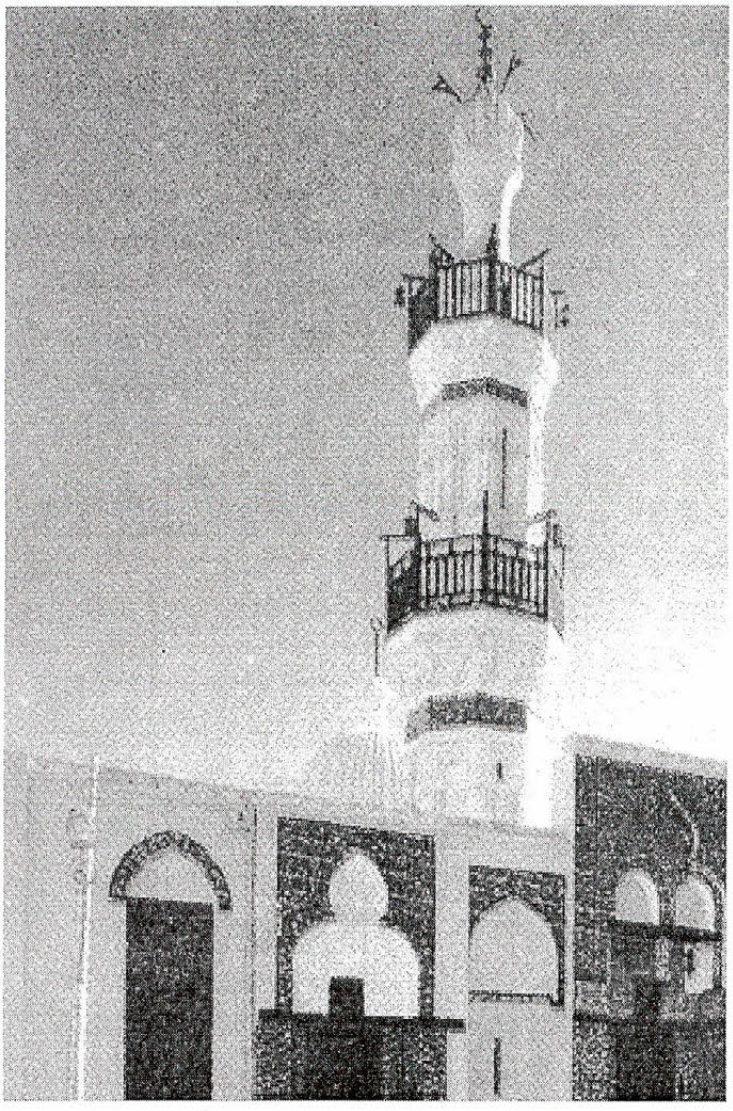


شكل ٣١: مئذنة شبيهة بمئذنة السلطان سليمان الواقعة شمالي المسجد الحرام.

[٢٩] الطواجن: أنصاف قِباب أو قِباب منخفضة.



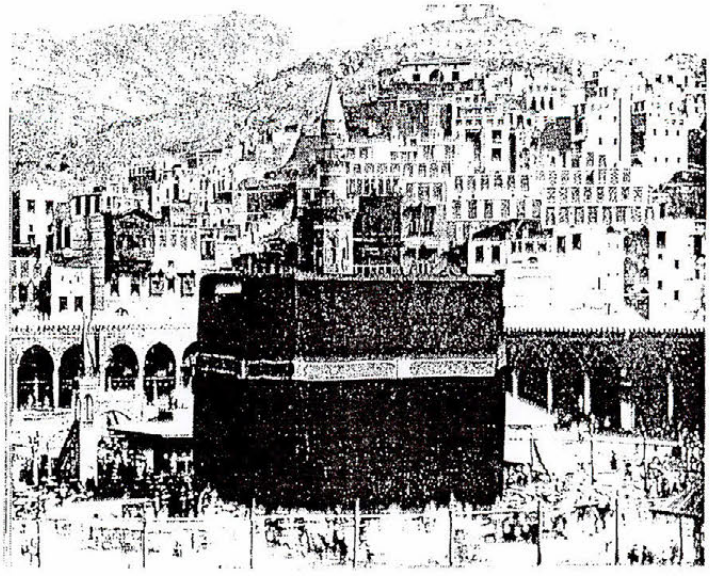
شكل ٣٢: رسم لمئذنة مسجد الشافعي بجدة.[٢٦]



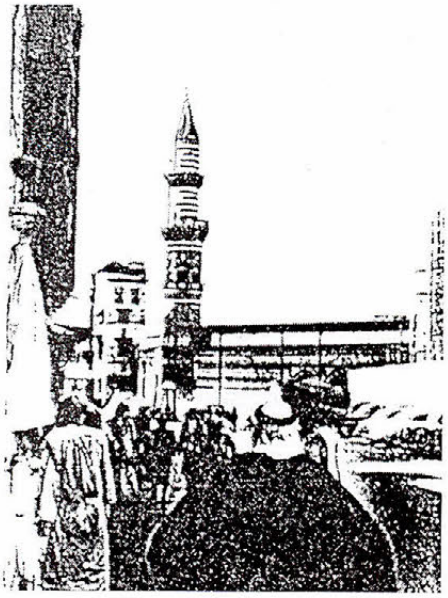
شكل ٣٣: صورة لمئذنة مسجد أبو المكارم بمدينة فوه بصعيد مصر تعود إلى العصر المملوكي.[٢٧]

ومن ضمن الأخطاء، خطأ في رسم مئذنة باب علي (وهي على يسار الرسم) وهذه المئذنة شبيهة بمئذنة السلطان سليمان قايتباي إلا أن لها دورين أنشئها الخليفة المهدي العباسي في حدود سنة ١٦٨هـ ثم عمرها السلطان سليمان سنة ٩٧٠هـ وهدمت سنة ١٣٧٦هـ ضمن أعمال التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام، يلاحظ في شكل المئذنة التي لم تؤخذ بالاعتبار بها في التصور العهد العثماني (شكل ٣٤، شكل ٣٥)، وكذلك المشربيات التي كانت تزين مساكن مكة لم يؤخذ الاعتبار بها أيضا.

نضيف أن باقي المآذن ليست مرسومة بوضوح كما ينبغي، إذ أنه (كما أسلفنا) توجد صور فوتوغرافية لمآذن المسجد الحرام التي يمكن من خلالها رسمها جيدا في هذا التصور.



شكل ٣٤: صورة لمئذنة باب علي في الركن الجنوب الشرقي من المسجد الحرام.



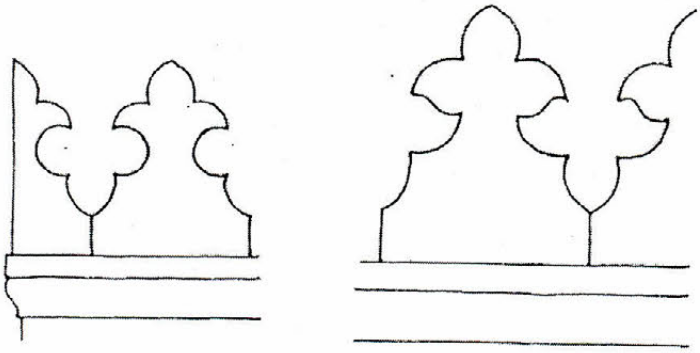
شكل ٣٥: صورة لمئذنة باب علي من خارج المسجد الحرام شرقي المسعى عمرها السلطان سليمان بحدود سنة ٩٧٠هـ شبيهة جدا بمئذنة مدرسة السلطان سليمان شمالي المسجد الحرام إلا أنها لها شرفتين.[٢٨]

من الملاحظ أن هناك أيضا خطأ في عدد القباب، وخطأ في أشكالها التي تقع في الجهة الشمالية في المسجد الحرام.

أقول: وهذه القباب شكلها وأحجامها واحدة كما في الصور، لكن في هذا التصور ترى كل قبة تختلف عن الأخرى في الشكل وفي الحجم.

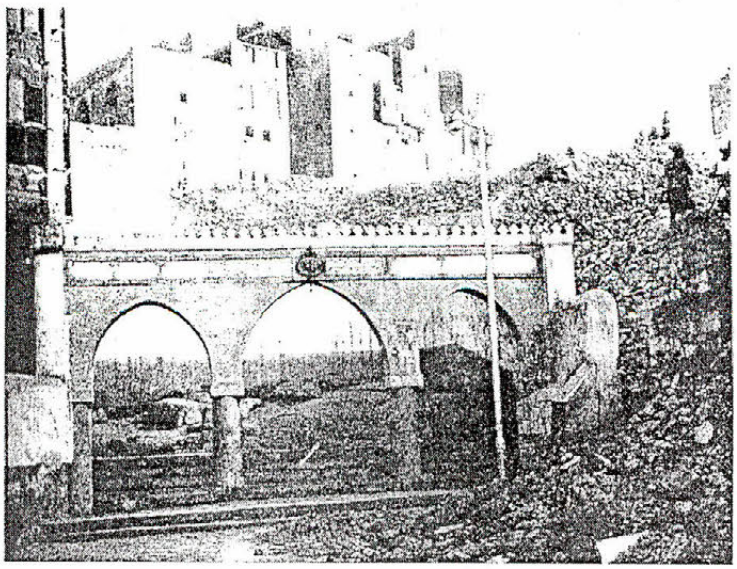
ومن الأخطاء أن مبنى زمزم لا يعلوه قبة في هذا التصور، والصحيح أنه يعلوه قبة خضراء مخططة مقامة على سقف جملوني أخضر ومخطط، أضف إلى ذلك أن سقاية العباس وقبة الفراشين المتجاورتين ليستا مرسومتين بوضوح.

من الملاحظ أيضا أن سطح المسجد الحرام لا يعلوه شرافات، والصحيح في هذا التصور أنه يعلوه شرافات من قديم الزمن بما في ذلك العصر العثماني (شكل ٣٦).



شكل ٣٦: شكل شرافات المسجد الحرام في العصر العثماني.

من الملاحظ في الرسم عدم إظهار عقود الصفا الثلاثة، ومكانها على يسار أسفل الرسم، والتي كانت موجودة حتى سنة ١٣٧٧هـ، وهذه موقعها جنوبي مئذنة باب علي رضي الله عنه، والصفا مبنى لا سقف له، به أحجار الصفا، وله أدراج، وعقود الصفا تطل على الجهة الشمالية (شكل ٣٧)، أي يمكن إظهارها في الرسم لمقابلتها جبل أبي قبيس، حيث أن الرسم مأخوذ من فوقه.



شكل ٣٧: صورة لعقود الصفا الثلاثة.[٦]

وقد اطلعت على الكثير من المخطوطات المصورة التي ترجع إلى العصر العثماني المرسومة في نفس الجهة، فوجدت أن مبنى الصفا يعتبر أحد المعالم الرئيسية في الرسم، وذلك لقربه من المسجد الحرام.

وهذه المخطوطات أو الرسومات رسمت من نفس الجهة، وهي من فوق جبل أبي قبيس، فعلى ذلك ينبغي إظهار مبنى الصفا في هذا التصور خلافا للمروة التي لا يمكن إظهارها في الرسم لمحدوديته، ولبعدها عن المسجد الحرام قديما.

دار الأرقم عند الصفا في العهد العثماني

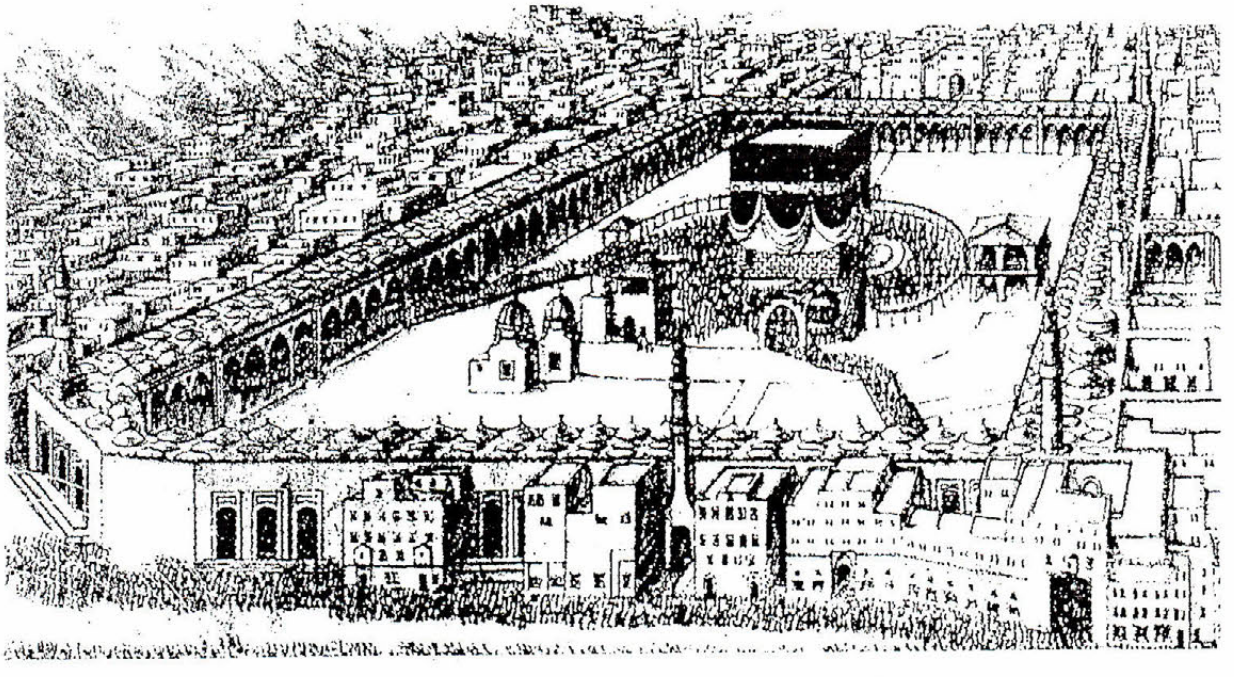
يقول محمد طاهر الكردي -رحمه الله- دار الأرقم كانت بالصفا عند مبدأ السعي على يسار الصاعد إليه من الشرق والمسافة بين جبل الصفا، أي من موضع ابتداء السعي، وبين هذه الدار ستة وثلاثون مترا باستقامة خط المشي، أو ثمانية وأربعون مترا، إذا انعطف ناحية الحارة التي كانت بها الدار قبل هدمها في التوسعة السعودية سنة ١٣٧٥هـ. [٦، ج٢ ص ص ٨٨]

وفي كتاب الرحلة الحجازية للبتنوني عند الكلام عن دار الأرقم ما نصه:[٢٩]

أما دار الأرقم المخزومي، المشهور بدار الخيزران، فهي في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا، وهي الدار التي كان يختبئ فيها رسول الله ﷺ في بعثته هو ومن آمن معه، وكانوا يصلون سرا حتى أسلم عمر ﷺ، فقويت به عصبيتهم وجهروا بالإسلام والصلاة، وباب (هذه الدار) يفتح إلى الشرق، ويدخل منه إلى فسحة سماوية طولها نحو ثمان أمتار في عرض أربعة، وعلى يسارها ديوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار، وفي وسط الحائط التي على يمينها باب يدخل منه إلى غرفة طولها ثمانية أمتار في عرض نحو نصف ذلك، مفروشة بالحصير..إلخ.

أقول: وقد عمرت هذه الدار عدة مرات عبر العصور الإسلامية، كان آخرها عمارة إبراهيم بك، جددها من أساسها إلى فوقها، وجعل فيها قبة عظيمة وطاجنين،[٣٠] وطبطب السطح بالنورة، وذلك سنة ١١١٢هـ، قال الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه: وقد هدمت هذه القبة في سنة ١٣٤٣هـ.[٣٠]

أقول: وقد اطلعت على مجموعة من المخطوطات المصورة لرسومات المسجد الحرام في العصر العثماني، فوجدت رسما لدار الأرقم على نفس الموقع قرب الصفا وعلى نفس الصفة التي عمرها إبراهيم بك، بحيث يعلوها قبة عظيمة وطاجنين (شكل ٣٨). هذا، وقد تطرقنا لموضوع هذه الدار في زمن النبوة والعصرين العباسي والأيوبي.

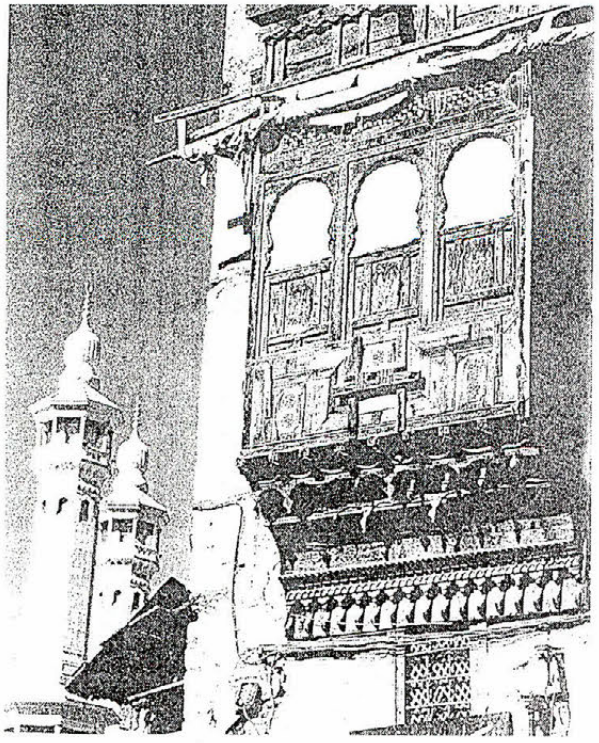


شكل ٣٨: مخطوطة للمسجد الحرام من الجهة الشرقية في العصر العثماني.[٣١]

[٣٠] طاجنين: أي قبتين منخفضتين.

المشربيات في مساكن مكة

يلاحظ في هذا التصور عدم احتواء الأبنية على مشربيات، (والمشربيات سمة مميزة للأبنية في مكة في العصر العثماني) والمشربيات هي نوافذ حائطية خشبية ذات واجهات جميلة تساعد في نظام التهوية والتخفيف من حدة حرارة الشمس خاصة في مكة. وتوجد صور كثير جدا لمكة القديمة وبيوتها وقصورها حيث تحوي المشربيات الجميلة (شكل ٣٩).



شكل ٣٩: طراز المشربية في مساكن مكة القديمة من العهد العثماني.

طواجن الفقراء

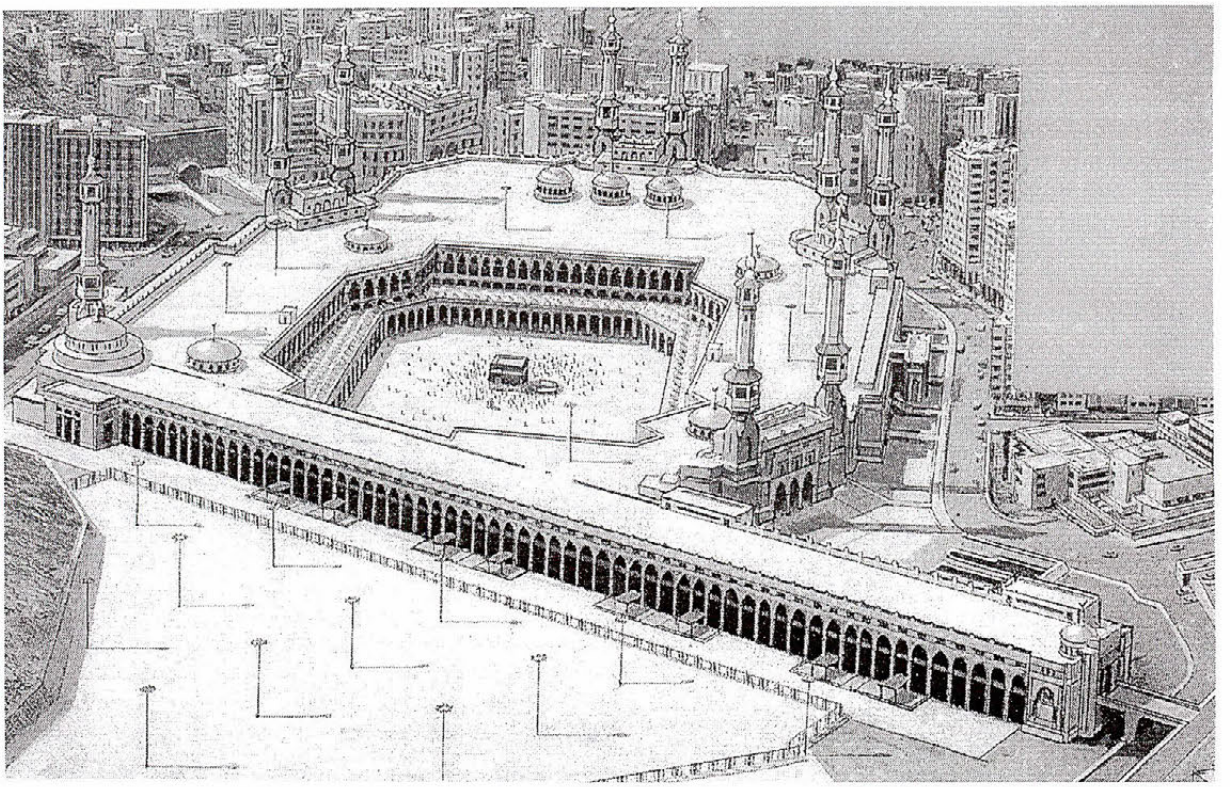
الطواجن هي سمة معمارية كانت تعلو بعض المساجد والأسواق في العصر العثماني وهي عبارة عن قباب منخفضة محمولة على العقود.

لقد ذكر القطبي – رحمه الله – الطواجن إنما بنيت جنوبي المسجد الحرام في زمنه في أواخر القرن العاشر الهجري. وكان بناء هذه الطواجن لفقراء مكة لئلا يبيتوا في المسجد الحرام، ويمكن إظهارها في هذا التصور جنوبي المسجد الحرام (خارج بناء المسجد – يسار التصور).

وبما أن هذا العهد مؤرخ بسنة ١٢١٥هـ – ١٨٠٠م، فإن هذا يعني أن الطواجن كانت موجودة في هذا المكان. أما بعد ذلك فقد هدمت وحل محلها قصر الحميدية والتكية المصرية ومباني أخرى.[٢٤]

مكة المكرمة في العهد السعودي

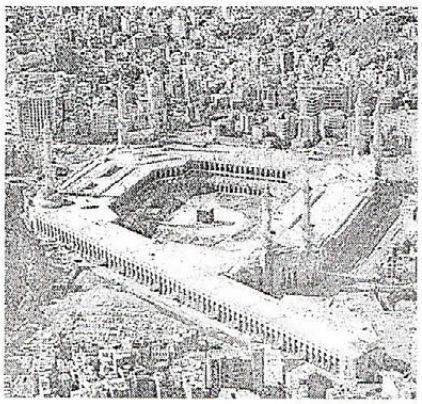
مما ينبغي إيضاحه على هذه التصورات هو الانتقال مباشرة من عهد الدولة العثمانية إلى العهد السعودي (شكل ٤٠)، المشتمل على توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز دون عرض المرحلة التي تمت فيها عمارة المسجد الحرام زمن الملك سعود رحمه الله في الفترة من سنة ١٣٧٥هـ وحتى سنة ١٣٨٣ هـ تقريبا ويوجد فارق زمني فيما بين العهدين هذا بالإضافة إلى تغير شكل المسجد الحرام باحتوائه على التوسعة الجديدة (غربي المسجد أو باب إبراهيم أو السوق الصغير أو باب الملك فهد أو الزيادة المشتملة على المئذنتين والقباب الثلاثة) هذا بالإضافة إلى توسعة الساحة شرقي المسعى.



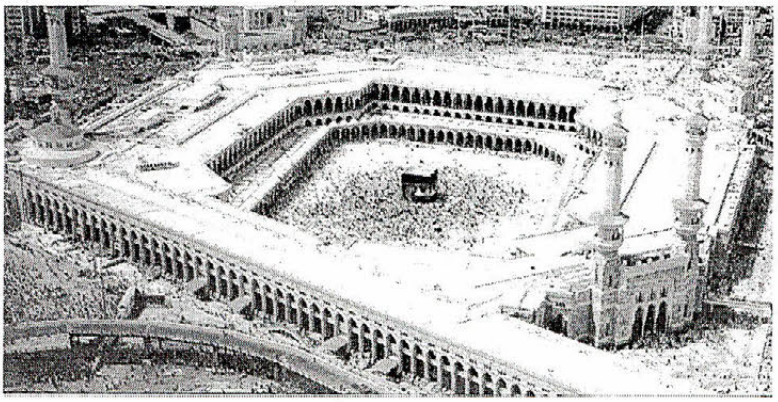
شكل ٤٠: رسم يوضح مكة المكرمة في العهد السعودي.

ومما سبق يتضح لنا أهمية إدراج صورة العمارة السعودية الأولى ووضعها بين عهد الدولة العثمانية والعهد السعودي، وهذه الصورة سوف تبين الانتقال التدريجي في توسعة الحرم المكي الحاصلة في وقتنا الحاضر.

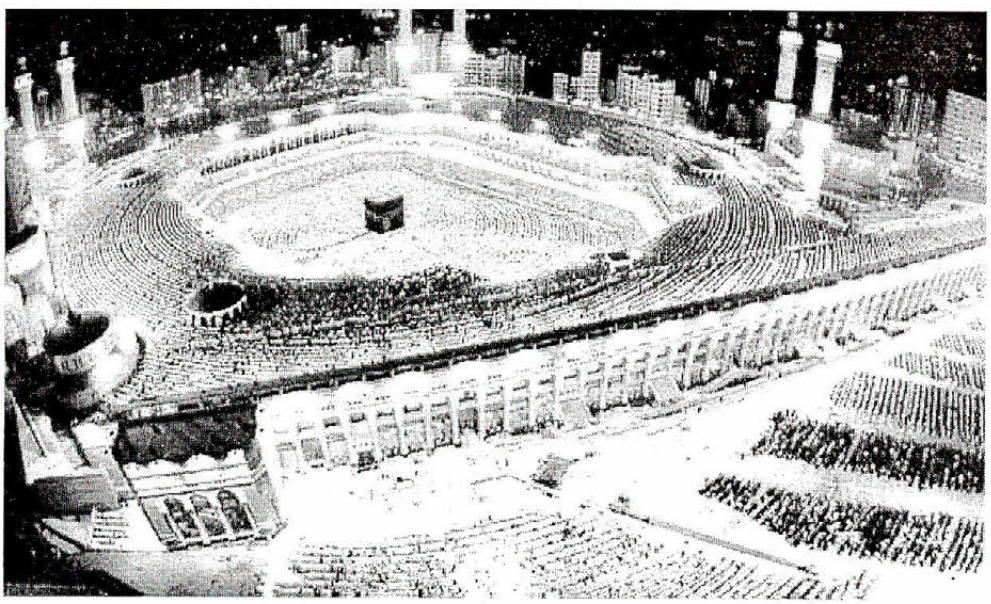
كما ويهدف هذا الاستدراك إلى إفهام الجيل اللاحق أن المسجد الحرام في حاضرنا هذا قد وسع مرتين وليس مرة واحدة (شكل ٤١، ٤٢، ٤٣).



شكل ٤١: صورة للمسجد الحرام قبل التوسعة الحالية.



شكل ٤٢: صورة للمسجد الحرام قبل التوسعة الحالية.



شكل ٤٣: صورة للمسجد الحرام قبل التوسعة الحالية.

أما ملاحظاتنا على هذا التصور فهي أن الكعبة مرسومة بحجمها الطبيعي، وعليك أن تقارن أخي القارئ ما بين والأحجام الغير صحيحة لها الواردة في التصورات الأخرى، وقد أشرنا إلى ذلك في مقدمة هذا البحث.

في هذا التصور (شكل ٤٠) للمسجد الحرام في عصرنا الحاضر المشتمل على الزيادة السعودية الحالية فأنا استغرب وجود أخطاء رغم توفر الصور الخاصة للمسجد الحرام حديثا. وسنذكر باختصار بعض الأخطاء وهي:

١- يلاحظ أن الكعبة عليها الكسوة المصرية وهي مختلفة عن الكسوة السعودية وهذه ملاحظة مهمة.

٢- القباب الكبيرة التي تعلو سطح المسجد الحرام تبدو وكأنها قباب ذهبية، وهذا ليس بصحيح. والصحيح أنها قباب بنية اللون حيث هي مغطاة بالسيراميك البني.

٣- الصحيح أن قبة المروة ليست على هيئة باقي القباب لأنها قبة مربعة وليست مستديرة، لكن الملاحظ أن القباب كلها متماثلة في هذا التصور من حيث الاستدارة.

٤- أيضا يوجد خطأ في رسم الأسوار المحيطة بالساحة شرقي المسعى بما في ذلك البوابات.

٥- يفترض وجود مبنى مركز مكة جهة باب الملك فهد لأن هذا المركز بني مع التوسعة السعودية الحالية.

الخاتمة

فبعد الاستعراض المطول لعرض ونقد هذه التصورات في عدة عهود وأزمنة، والتي تبين أن هناك أخطاء جمة ورئيسية والتي من أهمها مساحة وحجم الكعبة والمسجد الحرام قديما وأخطاء في مقياس الرسم من تصور لآخر، وفي وجود المآذن أو عدم وجودها .. إلى غير ذلك من ملاحظات واستدراكات موثقة ومستدلا بها من عدة مصادر لكتب تاريخ مكة وتاريخ عمارة المسجد الحرام والرحلات وغيرها. وكل ذلك لإثبات وتدعيم تلك الاستدراكات أو تلك الملاحظات.

المراجع

[١] صحيح البخاري.

[٢] السباعي، أحمد محمد، *تاريخ مكة*. مطبوعات نادي مكة الأدبي.

[٣] الأزرقي ، أبو الوليد، *أخبار مكة وما جاء فيها من آثار*. دار الأندلس، بيروت ١٩٨٣م.

[٤] ابن كثير، الحافظ، *البداية والنهاية*.

[٥] باسلامة، حسين عبد الله، *تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها*. الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ، تهامة، جدة، المملكة العربية السعودية.

[٦] الكردي، محمد طاهر، *التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم*. مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ.

[٧] رضا، فؤاد علي، *أم القرى*. مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

[٨] القرشي، ابن ظهيرة، *الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها، وبناء البيت الشريف*، ٩٥٠هـ.

[٩] الفاسي، تقي الدين، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*. الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[١٠] الخربوطلي، علي حسني، *تاريخ الكعبة*. دار الجيل، لبنان.

[١١] شافعي، محمد فريد، *العمارة العربية*.

[١٢] الصاوي، أمينة، *الكعبة المعظمة*.

[١٣] شراب، محمد حسن، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة. دار العلم، دمشق، ١٤١١هـ.

[١٤] Editors of Time-Life Books, *The March of Islam A.D 60-800*. Amsterdam.

[١٥] الهمشري، النظام الاقتصادي في الإسلام ٢٦٠، وابن سعد في الطبقات ط – ليـــدن ١، ٣٤، ٢، ٤١، ١٧٩ و ٣٠، والشوكاني، نيل الأوطار ٦، ٥٩، ٥٦. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة ص ص ٦٨-٦٩.

[١٦] ابن هشام، *السيرة النبوية*، أيضا العمري، عبد العزيز إبراهيم، *الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرســـول* ﷺ، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية.

[١٧] مجلة المدينة العربية، منظمة المدن العربية.

[١٨] التلمساني، محمد بن أبي بكر، مجلة العرب، مجلد ٥، ١٩٧٤/١/٦م.

[١٩] ابن جبير، *الرحلة، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك*. دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان.

[٢٠] Zafarul, Islam Khan, & Zaki, Yaqub, *Hajj In Focus*. Alhoda Publishers.

[٢١] ابن عبد ربه، أبي عمر أحمد بن محمد، *العقد الفريد*.

[٢٢] سفرنامة، *رحلة ناصر خسرو العلوي الفارسي إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القـــرن الخـــامس الهجري*.

[٢٣] كرارة، الحاج عباس، *الدين وتاريخ الحرمين*.

[٢٤] القطبي، عبد الكريم محب الدين، *إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام*. (تحقيق، د. عبد الله الجبوري) الرياض، دار الرفاعي، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـــ – ١٩٨٧م.

[٢٥] King, G R D, *The Historical Mosques Of Saudi Arabia*. Longman, London & New York.

[٢٦] Didier, Charles, *Sojourn With The Grand Sharif Of Makkah*. The Oleander Press.

[٢٧] محمد، طه، *مدينة فوه، ثالث المدن الإسلامية في مصر*. جريدة الوطن الإسلامي، الكويت، ١٤١٩/٢/١٧هـــ الموافق ١٩٩٨/٦/١٢م.

[٢٨] Shah, Sayed Idries, *Destination Mecca*.

[٢٩] البتنوني، محمد لبيب، *الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر*. مكتبـــة الثقافـــة الدينية، القاهرة.

[٣٠] الغازي، *إتحاف فضلاء الزمن*.

[٣١] ....., *A Guide To Hajj*. Kitab Bhavan, New Delhi, 110002.

Makkah Al-Mokarramah throughout History

Mohammed Suleiman Al-Nafeesi

Kuwait

Abstract: It became evident to me that many of the illustrative drawings which explain the development phases of Makkah; its growth throughout history had many fatal errors that should not be ignored. My research and readings of Makkah Al-Mokarramah in general, and of Al-Haram Mosque in particular shows the possibility of it to be corrected. This corrective paper is even more important since a great number of printed materials have invaded the market as a bookseller stated.